

روايات عالمية للجيب 69

لورد جيم

Looloo

www.dvd4arab.com

تأليف : جوزيف كونراد
ترجمة وإعداد : د. أحمد خالد توفيق



المؤلف



لقلونا الثلثى مع (جوزيف كونراد Joseph Conrad) الذى قدمنا له من قبل فى هذه السلسلة روايته الصعبة المملة نوعاً (قلب الظلام) . وقد قدمناها برغم كل شيء لأنها بالغة الأهمية وتمثل جزءاً حيوياً من ثقافة قارئ الإنجليزية . هذه المرة نلتقى مع قصته الشهيرة الأخرى (لورد جيم) وهى أكثر تشويقاً لحسن الحظ .

قلنا من قبل إن الرجل أديب مهم من أدباء الإنجليزية برغم أنه بولندى الأصل ، وكان يتكلم الإنجليزية بصعوبة بالغة ، مما كان يرهقه بشدة فى الكتابة .

ولد عام 1857 فى منطقة بين روسيا وبولندا يطلقون عليها (أوكرانيا البولندية) لأسرة من طبقة نبيلة . لأسباب سياسية نفيت الأسرة من بولندا ، وتوفي الأب ثم الأم ليجد (جوزيف) نفسه تحت رعاية عمه .

سافر الصبى إلى فرنسا عام 1974 حيث تعلم هناك الفرنسية وأصول الملاحة فى البحر ، وهناك كون صداقات مع مجموعة من الأدباء الفرنسيين البوهيميين . لهذا ظل طفلة حياته مزيجاً فريداً من بحار وفنان .

فى العام 1978 يرحل الفتى إلى إنجلترا ليكمل ضابطاً على السفن البريطانية ، وقدر له أن يظل هناك عشرين عاماً من حياته .

قرر الفتى أن يكتب .. وكان أول ما كتبه باللغة الإنجليزية وهذا غريب لأن الإنجليزية ثالث لغة تعلمها فى حياته (بعد البولندية والفرنسية) . سافر إلى الكونغو عام 1890 فرأى كيف يعامل البلجيكيون العنصريون القساء سكان البلاد ، وعاد ليكتب (قلب الظلام) . إن أسلوب الرجل معقد وغامض لدرجة أن هناك نقاداً غربيين اعتبروا القصة تمجيذاً للاستعمار الغربى لا هجوماً عليه !

بعد وفاة عمه الثرى ظفر بارث كبير مكنه من أن يتفرغ للكتابة طفلة حياته . وكانت معاناته و(مصارعه) للغة الإنجليزية سبباً لكونه مشغولاً على الدوام ، ولم يكن لديه وقت للعلاقات الاجتماعية والأسرية .

توفى عام 1924 بنوبة قلبية وهو فى الولايات المتحدة الأمريكية ، وترك لنا 13 رواية و28 قصة قصيرة .

غالباً ما يكون الراوى فى قصصه بحاراً متقاعدًا اسمه (مارلو) .. فى قصة (لورد جيم 1900) التى هى بين يديك يحاول بحار أن يصحح خطأ ارتكبه فى شبابه يتسم بالجبن مع سفينة تقل بعض الحجاج المسلمين . والقصة مأخوذة عن حادثة حقيقية للسفينة (جذة) التى أحدثت صخباً فى ذلك العصر ، وقد قدمتها السينما العالمية عام 1965 فى فيلم جميل بالاسم نفسه وقام ببطولته (بيتر أوتول) وأخرجه (ريتشارد بروكس) . القصة برغم قوتها لا تخلو من ذات التعالى العنصرى الذى كان رمز المرحلة : الرجل الأبيض الذى جاء ليُهذى الحكمة والنبل للوطنيين الطيبين العاجزين عن حماية أنفسهم . إن لورد جيم طرزان آخر لكنه يقدم بشكل ثقافى عالى المحتوى الأدبى .

فى قصة (العميل السرى 1907) يحكى كونراد عن فوضى يعيش فى لندن . وفى قصة (تحت عين غربية 1915) يحكى عن تسلط روسيا فى القرن التاسع عشر . أما عن قصة (قلب الظلام) التى كتبها عام 1902 فيعرف من قرعوها أنها تتحدث عن رحلة مخيفة عبر نهر أفريقى لمقابلة رجل غربى رهيب يعيش فى الأحرار ويدعى (كورتز) ، وهذا الرجل أحاط نفسه بالغموض لدرجة أن بعض مواطنيه أوشكوا على تأليهه .

(جوزيف كونراد) أديب مهم لابد أن يُقرأ ، وإن كان مرهقا إلى حد ما ، وقد حاولت أن أجعله أسهل في الرواية الأولى فلم أوفق كثيرا ، لكنى حاولت بجدية أكثر في هذه الرواية ، وأعتقد أنها ستروق لك .

د . احمد خالد

الفصل الأول

كان طويل القامة قوى البنيان منحني الكتفين قليلا ، يعطى طابع الثور المنقض . كان صوته عميقا عاليا وكان متأثقا في ثيابه البيضاء كلها ، محبوبا في الموانئ الشرقية حيث كان يعمل في نقل المؤن للسفن .

إنه مخلص لقبطان سفينته ، متنبه كابن عطوف ، يتمتع بصبر أيوب . مهنته مهنة جميلة لكنها ليست سهلة ، ولهذا تجد أن من يمارسون مهنته قليلون .. خاصة إذا كان صاحب المهنة قد تربى في البحر فإنه يساوى ثقله ذهبيا . لهذا كان (جيم) ينال أعلى الأجر . لكنه كان قد قرر أن يترك العمل فجاء ليعمل في مكان آخر ، وكان رؤسائه يرونه يتعد فيصيحون (الأحمق الغبي !) ..

بالنسبة للبحارة كان هو (جيم) .. لا شيء غير هذا .. بالطبع كان له اسم ثان لكنه كان مصرا على عدم ذكره . لم يكن هذا الغموض يهدف لإخفاء شخصيته بل حقيقته .. وكان يرحل فورا بمجرد أن تحدث ثقوب في إطار الغموض الذي يحيط به نفسه . غالبا كان يتجه نحو الشرق أكثر ..

كان ينفي نفسه نحو الشمس باستمرار ، والحقيقة كانت تتبعية بشكل عابر لكن لا مفر منه . لهذا خلال أعوام صار معروفاً في بومباي وكالكتا ورائجون وبينتاج ، وهناك في الملايو أطلقوا عليه (توان جيم) وهو ما يشبه (لورد جيم) في الإنجليزية .

جاء في الأصل من بيت قس وكذلك نشأ كثيرون من خيرة قباطنة السفن التجارية . كان واحداً بين خمسة أبناء ، وقد شعر بحنين للبحر بعد ما قرأ بعض القصص في إحدى عطلات الصيف . وتم إرساله لسفينة مخصصة لتدريب ضباط البحرية التجارية .

هناك كان محبوباً سريع التعلم ، وقد راح يُمنى نفسه بحياة جميلة في عالم المغامرات . كان يرى نفسه ينقذ الناس من سفينة غارقة ويكافح الأعاصير .. أحياناً يرى نفسه حافياً شبه عار على جزيرة مهجورة .. يواجه المتوحشين في المناطق الاستوائية ويواجه القراصنة في غرض البحر .. مخلصاً دوماً لواجبه كبطل من أبطال الكتب .

في ذلك اليوم العاصف اصطدمت سفينة تجارية بمركب ذات صاريين عند المرسى ، وهرع الصبية يراقبون المشهد وهم يصرخون : « تصادم ! »

شعر جيم بمن يمسك كتفه ومن يقول له :

.. « تأخرت أيها الشاب .. »

كان هذا قبطان السفينة ، فقد كان جيم على أهبة الوثب فتوقف وقد بدا ألم الهزيمة في عينيه . كان يؤمن أنه لا يخاف العواصف .. إنه قادر على مواجهة كل شيء أفضل من أي واحد آخر . كان مؤمناً بكفاءته وقدراته بلا حد .

★ ★ ★

بعد عامين من التدريب ذهب للبحر ، وهناك زار أماكن عرفها من قبل جيداً في مخيلته . ووجدوا جذبة من المغامرة بشكل غريب . قام برحلات عديدة وذاق الرتبة الساحرة لأن تكون بين السماء والبحر ، وذاق نقد الرجال له ، ومرارة أن تعمل من أجل لقمة عيشك .. لم يكن بوسع التراجع لأنه لا يوجد شيء مغر يستعبدك ويحررك مثل الحياة في البحر . كان مهذباً يعرف واجبه جيداً .. وفي سن صغيرة جداً صار كبير ضباط سفينة ، لكنه لم يمر بالتجارب التي تختبر معدن الرجال وثبات أعصابهم وحقيقة قدرتهم على التحمل . وتكشف المرء ليس أمام رفاقه فقط بل أمام نفسه .

كاد يفقد حياته ذات مرة عندما هوت صارية عليه ، وقضى فترة طويلة في الفراش ، ثم عندما رست السفينة على المرفأ الشرقي ذهب إلى المستشفى .. اضطروا لتركه لأن نفاثته استغرقت وقتاً ..

لم يكن معه سوى مريضين في غرفة البيض .. أحدهما ضابط محاسبة على سفينة حربية ، والآخر موثق عقود سكك حديدية من محافظة مجاورة مصاب بمرض استوائي غامض ، يؤمن أن طبيبه حمار ، ويتعاطى مسراً دواء خاصاً يجلبه له خادمه (التاميل) المخلص .

كانوا يتبادلون الذكريات ويلعبون الورق ويقضون اليوم في مناماتهم مسترخين . من النافذة تهب ريح شرقية محملة بالهطر .. تحمل وعداً بالراحة .. السلام الأبدى لسماء الشرق ..

ما إن استطاع جيم المشى بلا عكازين حتى قصد المدينة يبحث عن طريقة تعيده للوطن . لم يجد شيئاً لكنه اختلط كثيراً برجال البحر مثله . منهم الحالمون الذين لا يكفون عن وضع الخطط المستقبلية ، والذين لا توجد حقيقة أكيدة في حياتهم سوى موتهم . الياقون كانوا مثله جاعوا هنا بحدث ما .. وقد اعتادوا سلام الشرق وراحوا يخشون العودة للوطن للخدمة من جديد ..

في كلامهم وأفعالهم تجد تلك البقعة الرخوة : الرغبة في حياة مسترخية وسط للوجود .

بدأ جيم يحب وجود هؤلاء القوم ، ومع الوقت نبذ فكرة العودة للوطن ، ووجد لنفسه وظيفة كضابط على السفينة (باتنا) .

(باتنا) كانت سفينة بخارية عتيقة كالجبال رشيقة ككلب سلوقي وقد التهمها الصدا كخزان ماء ..

يملكها رجل صيني ويستأجرها عربي .. ويقودها ألماني من (نيو ساوث ويلز) يمقت بلده بصف ، لكنه يتوحش مع كل الذين لا يخشاهم .. له شارب قرمزي وأنف أحمر ..

تم دهان السفينة من الخارج وغسلها من الداخل ، ثم استقلها 800 حاج صعودوا على ظهرها فوق ثلاثة ألواح خشبية ، وكلهم إيمان وأمل في دخول الجنة .. تضرب أقدامهم الحافية الأرض بلا كلمة أو نظرة للوراء . وسرعان ما ملئوا السفينة كأنهم الماء يملأ خزائنا .. يرتفعون في صمت نحو للحافة .

ثمانمائة حاج كلهم أمل وإيمان .. من الشمال والجنوب .. عبروا الغابات والأنهار وأبحروا من جزيرة لجزيرة .. تركوا

قراهم وغاباتهم وحمايتهم وحكامهم وفقرهم ونكريات شبابهم وقبور
آبائهم ..

جاءوا شعاعاً غبراً .. الشيوخ الضطاء جاءوا وهم يوقنون
أنهم لن يعودوا .. ثمة أطفال يعيون لا تخاف مليئة بالفضول .
نساء يرتدين الأسمال يحملن أطفالهن النيام ..

قال الأكماني لضابطه الجديد مشيراً إلى الركاب :

« انظر لهذه الأبقار .. »

جاء قائد المجموعة أخيراً وهو عربى وسيم جاد الملامح ،
بثيابه البيضاء وعمامته العالية . ثم جاء مجموعة من الخدم
يحملون متاعه . وبدأت (باتنا) تبتعد عن رصيف الميناء .

دارت نصف دورة فى ظل جبل ثم عبرت صفخور الخليج التى
تفور المياه عليها . ووقف العربى يتلو دعاء السفر . عبرت
السفينة البوغاز وقطعت الخليج ثم بدأت رحلتها نحو البحر
الأحمر تحت سماء صافية . ومن تحتها كان البحر أزرق عميقاً
بلا حركة ولا تجعيدة واحدة كأنه ميت . وتساعد الدخان الأسود
للسماء بينما خلفت السفينة وراءها شريطاً أبيض من الرغوة
تلاشى فى الحال .

فى كل يوم تشرق الشمس من البقعة نفسها لتحرق المسافرين
ثم تفوص فى غموض فى البحر ليلة تلو ليلة . وكان الخمسة
البيض الذين يقودون السفينة يعملون بمعزل عن حملتها
البشرية .

وكذا دارت الأيام حارة ثقيلة تغيب يوماً بعد يوم فى الماضى ..
والسفينة تفوص فى اتساع براق لا نهاية له تحرقها الشمس
التي لا تترقق . لذا كان الليل بالنسبة لها رحمة .

الفصل الثاني

بدا بحر العرب ناعماً كأنه لوح من الثلج يمتد نحو الأفق المظلم . وعلى جانبى (باتنا) تعالت المياه تقور ثم تلتقى من جديد بعد ما ترحل السفينة .

كان جيم على منصة الريان يقف وقد سحره هذا الهدوء والسلام على وجه الطبيعة ، كأنه السلام على وجه أم . وتحتة كان الحجاج الذين استسلموا لحكمة الرجال البيض وسفينتهم المعدنية ، ينامون على الحصر والواح الخشب العارية وكل ركن مظلم وقد أراحوا الرعوس على أكياس صغيرة فيها متاعهم كله ، ودفنوا وجوههم فى سواعدهم . إنه النوم شقيق الموت حيث يصير الجميع متساوين .

رجل عجوز ينام على سجادة الصلاة وقد وضع يداً على كل أذن من أذنيه ، وامرأة مغطاة من قمة رأسها لأخمص قدمها تنام وطفل عار فى تجويف كل من ذراعيها . بينما تكومت الأمتعة فى كومة عالية لا يمكن أن تفهم حدودها ..

مشى جيم وصوت خطواته العالى يبدو كأن النجوم تردد صداه . عيناه تتفحصان الأفق كأنه يبحث عن المستحيل . كان الظل الوحيد فى البحر هو ظل الدخان الذى يتدفق من المدخنة . تمطى جيم حتى سمع مفاصله تقرقع ، وشعر بأنه لا يزال باى شيء يحدث له إلى نهاية حياته .

من حين لآخر يرمى خارطة المثبتة بالديبايس إلى منضدة ذات ثلاثة أرجل .. هناك خارطة تبين أعماق البحر وفوقها مسطرة متوازية وقد تم تحديد موضع الباخرة عند الظهر بصليب أسود صغير . وخط بالقلم الرصاص يحدد مسار السفينة .. رحلة الأرواح إلى الأرض المقدسة .. حلم الخلاص .. والخلود فى الجنة .

كان يتساءل عن سبب ثبات السفينة وهدوء الرحلة ، وكان يحلم أحياناً بأن يختير رجولته .. لا يوجد خطر لا يقدر على مواجهته ..

دقت ساعته فأدرك أن موعد وديته قد شارف على الانتهاء ..
شعر برضا وإن تضليق لأنه سيفارق هذا البحر الهائل الجميل ..
كان النعاس يزحف عليه ، وشعر بلذة في كل طرف من أطرافه
كان دمه قد صار لبنًا دافئًا .

جاء صديقه بلا ضوضاء وهو يلبس منامته وقد اتفتحت
سترته . وجهه أحمر نصف متيقظ وعينه الوحيدة المفتوحة
زجاجية غريبة . راح يهرش ضلوعه وقد بدا مقرزًا .. لحم
صدره يلمع كأن دهنه قد سال من الحر .. سوف يذكر جيم هذا
الشكل البدين طويلاً باعتباره يجسد كل شيء دنىء في العالم الذي
نحبه ..

هوت رقاقة القمر الأخيرة لتضيع في سواد المياه .. والأبدية
في السماء اقتربت من الأرض ، والسفينة تتحرك بنعومة تفوق
قدرة البشر على الإحساس ، كأنها كوكب يدور حول الشمس بكل
ما عليه ..

قال الرجل :

- « لفظة (حار) لا تصلح للحال في قاع السفينة .. »

ابتسم جيم ولم يعط . بينما أدار الرجل ظهره له .. إنه
المهندس الثاني للسفينة يواصل شكواه . هنا ظهر القبطان
الأكماني من مكان ما غاضبًا وصاح في المهندس :

- « من أين جئت بالشراب ؟ »

ترنح المهندس وتمسك بالحاجز بكلتا يديه وقال :

- « شراب ؟ .. ليس منك يا كابتن .. أنت أكثر بخلًا من ذلك ..
أنتم معشر الأكماني تفضلون ترك رجل يموت على منحه جرعة
من (الشنابس) .. »

من حجرة القبطان تصاعدت ضوضاء كان بوسعك أن تميز
فيها بكثرة لفظة شفاين (خنزير بالأكمانية) تتطاير كريشة في
التسيم . كان هو والمهندس صديقين حميمين لأعوام لا بأس
بها ، يخدمان ذات الرجل الصيني ذي الضفيرة والعوينات الرفيعة
وبرغم هذا لم يكونا متناسبين .. أحدهما حقود رخو غبي العينين

مكتنز ، والآخر نحيل له رأس حصان وصدغان غائران .. كانت سفينته قد غرقت منذ عشرين عامًا قرب ساحل شرقي لعله الصين ونجا بشبابه . ولم يحاول إصلاح سفينته بل ظل هنا للأبد وكان يحب أن يعرف الغرباء أنه قديم فى هذه البلاد . يجوب سطح السفينة وهو ينخن التبغ المخلوط فى غليون طويل ، وهو شارد كمفكر غارق فى فكرة فلسفية عميقة .

كانت غضبة الأكمالى عاتية متفجرة ، وقد راح جيم يراقب المشهد فى استمقاع وإن نفد صبره بانتظار لحظة النزول لقمرته . هؤلاء القوم لا يمتون لعوالم البطولة بصلة لكنهم أناس طبيون .. يحتك بهم ويعيش معهم لكنه يختلف .

كان المهندس يقول :

« أنا ثمل ؟ لا يا كابتن .. لا .. لا .. أنا لا أسكر بسهولة ، وهذه السفينة ليس عليها نوع الخمر الذى يمكن أن يؤثر فى .. يمكن أن أشرب نازًا سائلة ويرغم هذا لا أهتم .. ولا أخشى ما يمكن أن تفعله .. »

وتخلى عن الحاجز ليأتى بيده حركات تدل على مدى بسالته وشجاعته .. وراح يتقدم للأمام والخلف ليكسب كلماته تأثيرًا . وفجأة هوى برأسه فى الماء كان هناك من ضربه من الخلف . فقط قل :

« تها ! »

مرت لحظة صمت ثم هرع الرجلان ينظران فوق الحاجز وهما مذهولان .. ينظران لصفحة الماء ثم رفعا رأسيهما نحو النجوم . ماذا حدث ؟ .. لستم صوت المحركات .. هل توقفت الأرض عن الدوران ؟ .. لقد غاص المهندس وتوارى بينما هدير خفيف كأنه رعد واهن أو رعد بعيد جدًا يدوى ، واهتزت السفينة للحظة .

المقدمة ارتفعت قليلًا ثم علات تشق البحر إلى نصفين .. وتوقف الاهتزاز وصوت الرعد الخافت ..

الفصل الثالث

بعد شهر من هذا حاول (جيم) فى رده على الأسئلة أن يحكى تجربته بصدق ، فقال عن السفينة :

« لقد واصلت طريقها بنعومة كنعبان يلتف حول عصا .. »

كان التحقيق يجرى فى المحكمة فى مرفأ شرقى . كان يقف محمر الخدين فى قفص الشهود . عشرات العيون تراقبه كأن هؤلاء القوم قد صاروا عبيدا طائعين لصوته . صوته العالى جدا كأنه الصوت الوحيد المسموع فى العالم . اهالى البلاد وبعض الأوروبيين فى سترات ضيقة بيضاء كجلودهم . وقبعاتهم على أفخاذهم

فى الخارج كانت الشمس حارقة بينما فى الداخل تتحرك المروحة العملاقة فتجعلك ترتجف . ووجه القاضى الحليق عديم التعبير ينظر له . يريدون الحقائق .. الحقائق ' كأن الحقائق تفسر أى شئ » .

« قلت إنكم اصطلدتم بشئ سلبح .. ربما حطام يحمله الماء .. طلب منك رئيسك أن تتحرك للمقدمة وترى إن كان هناك أى ضرر .. هل توقعت هذا من قوة الارتطام ؟ »

قال جيم :

« قيل لى ألا أحدث صخباً حتى لا أسبب ذعراً . بدا لى هذا معقولاً .. حملت مصباحاً معى واتجهت للمقدمة . فتحت المخزن الأمامى فسمعت صوت تدفق ماء هناك . لقد امتلأ المخزن بالماء لنصفه .. وعرفت أن هناك فجوة بالتأكيد تحت القاع . »

قال مستشار القاضى :

« نعم .. »

« لم أفكر فى الخطر وقتها .. ربما ذهلت قليلاً لأن هذا حدث بطريقة سريعة مفاجئة .. عدت لأخبر القبطان فقابلت المهندس الأول يترنح أسفل الدرج ، وقال لى إنه يعتقد أنه هشم ذراعه . لقد انزلق من فوق الدرج .. وصاح : رباه ! . الحاجز سوف يتهاوى خلال دقيقة وسوف تفرق السفينة اللعينة كمنقل من الرصاص . وصعد فى الدرج وهو لا يكف عن الصراخ .. تبعته فأريت القبطان يضربه على ظهره ثم وقف بكله فى غضب وبصوت خفيض .. أعتقد أنه كان يلومه على أنه لم يوقف المحركات بدلاً من عمل ضوضاء على ظهر السفينة . هكذا جرى المهندس إلى غرفة الآلات .. »

الحقائق التى يطلبها هؤلاء حدثت واحتلت زماناً ومكاناً .. فقط احتاجت إلى سفينة بخارية وزنها 1400 طن و 27 دقيقة من

الزمن أراد أن يسمحوا له بالكلام للأبد . ليس من أجل الحقيقة بل من أجله هو كذلك ..

« راح القبطان يتحرك من هنا لهنالك على منصة القيادة . بدا هادئا لكنه تعثر عدة مرات واصطدم بى ذات مرة كانه صار كفيفا .. بدأ يتكلم فلم يعد لكلامه معنى .. وكنت أعيد له لصوابه بأسئلة فيدرك ما هو فيه ويخجل . »

بدأ فم الفتى يجف وشعر كانه كان يأكل التراب ويشرب ماء البحر . وانتابته قشعريرة قوية . راح ينظر لرجل ابيض بين الحاضرين بدا له مألوفا لابد أنه قابله من قبل فى المزارع لكنه لم يتبادل معه الكلام هو لم يتكلم منذ شهر . لا جدوى من الكلام الان . لا جدوى من تذكره . لكنه ينظر له نظرة واعية تختلف عن نظرة الآخرين النائمة .

لكن مارلو لم ينس جيم قط . تذكره مرارا فيم بعد وفى كل أرجاء الأرض .. تذكره بالتفصيل ..

كم من جلسة مساء فى شرفة ، جلس فيها الجميع وفى كل يد سيجار مشعل .. فلا يوجد ضوء إلا وهج اللهب يتزايد من وقت لآخر فينبير هذا الوجه أو ذاك . وتأتى سيرة لورد جيم فيصمت مارلو طويلا ويتذكر ..

سيقول مارلو :

« نعم . أنا حضرت التحقيق وحتى اليوم لا أعرف لماذا ذهبت .. أنا مضطر لتصديق أن لكل منا ملاكا حارسا لو قبلتم أن لكل منا شيطانا كذلك .. أعرف أنه عندى .. الشيطان طبعا .. لم ألقه لكنى أعتمد على الدليل الظرفى .. أراكم قد نعمتم بالعشاء الشهى والآن تناقشتم واسترخيتم فى مقاعدكم قائلين : دع مارلو يتكلم .. ليكن .. سأفعل .. من الجميل أن نتكلم عن جيم فى أمسية كهذه ومضا صندوق مليء بالسجائر الممتاز ، وفى ليلة صافية مفعمة بضوء النجوم الذى يجعل أفضلنا ينمى أننا جننا الدنيا لنعائى .. بعضنا هنا يشعر أن الحياة تشبه جلسة بعد العشاء .. سهلة .. خالية .. ربما تتخللها تسلية بقصة خرافية سوف نلصاها فوراً قبل أن نحكى للنهاية لو كانت هناك نهاية .. يجب أن أقول إن عيى القيتا بعينه أثناء المحاكمة . كل شخص مهتم بالبحر كان هناك ؛ لكها كنت قضية شهيرة .. قضية غامضة .. وقول (غامضة) برغم أنها كانت فيها حقيقة عارية .. حقيقة عارية قبيحة كالية حقيقة . منذ الصباح للقى ألسنا يحكون قصة (الباتنا) ويسألون : هل عندك أحدث من هذه الأخبار ؟ كل شخص يتكلم عن هذه القصة ..

(*) مارلو هو نفسه من يحكى روايت كوسرك الأخرى . (قلب الظلام)
(والشباب) و (الحظ) ..

كان صديقي (روثفيل) في مكتب الملاحة يعطى بعض الدروس لطاھيه عندما سمع ضوضاء مكبوتة خلف ظهره . التفت فرأى حسب ما قال شيئاً عملاقاً مستديراً كأنه برميل كبير ملتفاً بقماش الغائلة المخطط ، وقد استبدت به الدهشة للحظات لم يستوعب فيها أن هذا الشيء حي وراح يتساءل عن السبب الذي جعله يأتي لمكتبه . كان المكان مزيجاً بالعسل ومن يمسحون الأرضيات ومحركي الدفة وكل واحد منهم يوشك على تسليق ظهر صاحبه ليرى في هذا الوقت كان الشيء الوافد قد نزع قبعته وراح يتكلم مع (روثفيل) لكن هذا كان مذعوراً حتى إنه لم يفهم حرفاً . بصوبة فهم أن القضية تتعلق بالبانتا . تمالك وصاح :

- « توقف !.. لا تقتر على فهمك .. عليك بالذهاب إلى المشرف .. كابتن (إليوت) هو من تريد . من هنا من هنا . »

وهرع يشق الطريق وسط الزحام والرجل يتبعه . حتى بلغا المكتب الرئيس ففتح الباب بلا طرقات وقال :

- « هذا هو سيد (بانتا) يا سيدي .. ادخل يا قبطان . »

(*) لا توجد فقرات في سياق الترجمة لو خطر لك هذا . لكن موراد يلمسونه العاض المعتاد لا يحرص الحدث بالتفصيل . من يقيه بشرحه فيم بعد . يكفى أن يعرف أن (بانتا) تعرضت لحادث وأن بحارته هربوا بكى جين تاركين الحجاج المسلمين على ظهرها لمصيرهم . يضطر البحارة لسرد اكتئيب لمسلطت تكن امرهم يفتصح عندما يكتشفون أن الحجاج بجوا وشهدوا بحدث . يمر من استطاع الفرار من الطاقم أو يمارض وهكذا يجد جيم نفسه المتورط الوحيد في هذه الجريمة المشينة المخلّة بالشرف . خاصة السفينة يجب أن يكون آخر من ينادرها

وأغلق الباب وهرع عائداً إلى أوراقيه وإن شعر بأن جو التوتر العام كان قوياً لدرجة أنه لم يعد يتذكر هجاء حروف اسمه . كان يشعر كأنه ألقى بإتسان لأسد جائع . لأن الرجل كان بحاجة لشخص يلتهمه على الإفطار ، لكنه لم يأكله وإنما اكتفى بمضغه ثم بصقه ثانية .

كان مع الرجل الضخم ثلاثة شبان ضمن طاقم بحارته وقد وقفوا على مسافة . هناك شاب خبيث المظهر يعق نراعه في جبهة ورجل فارع بمعطف أزرق شبيه بعصا مكسدة وله شارب كث ، أما الثالث فشاب عريض المنكبين يداه في جيبى معطفه يدير ظهره للآخرين . لا يتحرك على الإطلاق ويحملك في الشمس ..

هذه كانت أول مرة أرى فيها (جيم) ..

هناك وقف حليق الوجه نظيف اليبدين . واعداء أفضل من أي شاب سطعت عليه الشمس . ولأنني أعرف ما يعرفه فقد شعرت بغضب عليه كأنه ينتزع أسرارى بالخديعة . ليس مما يناسبه أن يبدو نقياً هكذا . وسألت نفسي : هل هو سمج ؟.. هل هو قاس ؟.. كأنه يوشك على الصفير بشفتيه . لم أهتم بالآخرين كما تلاحظون ؛ لأن مظهرهما كان يناسب القصة التي سمعتها ، والتي نؤشك أن تكون موضوع تحقيق عثني .

كان القبطان الألماني يقول :

- « أنا أعرف كل ركن في المحيط الهادئ أفضل من أي رجل إنجليزي أنا (خابير) في أبي وهو نولولو »

كنت أعرف كيف أنه (خابير) في هونولولو وأعرف نوعية معارفه هناك . لن أعلو سرا لو قلت إنني (خابير) بهذه الأمكن كذلك . هناك أوقات في حياة المرء عليه أن يفتح نفسه فيها بأن أية صحة طيبة . بل أعترف كذلك أن هؤلاء القوم يرغمونهم للأخلاق كانوا أحيانا معتمدين أكثر من هؤلاء الذين يرغبونكم على التعامل معهم .

- « أنتم معشر الإنجليز مجموعة من الأوغاد . تصنعون من الحبة قبة لمجرد أنني لم أولد في بلدكم اللعين . »

وارتجف جسده العساق فوق ساقيه الطويلتين الشبيهتين بعمودين وقال :

- « تريدون رخصة الملاحة ؟؟ خذوها !.. لا أريد رخصة ملاحة منكم .. إنني لأقضي حاجتي عليها .. »

تقريبا كانت حرارة كلماته توشك أن يتصاعد منها الدخان من قمة رأسه . كان الفضول يدفعني للبقاء .. ورحلت أراقب ذلك

الشباب الذي يبدو غير مهتم وهو ينظر للخارج كأنه سيمتركنا ويذهب في نزهة بمجرد أن يتأهب رفاقه من القسوة أن ترى رجلا اعتقل لا بسبب جريمة ولكن بسبب ضعف إجرامى . ضعف موجود فينا جميعا ، كما أنك في بعض بلاد الأرض تعرف أن كل حرس فيه ثعبان سام . كنت أتوقع أن يتلوى كخفصة اخترقها دبوس ويكس لكنه لم يفعل . لحسن الحظ أنه لم يفعل لو كنت تفهم قصدي . لم أخف إعجابي بالشباب .. لقد جاء من المكان الصحيح . كان واحدا منا . كان أقوى من الضعف أمام الذكريات ألا تيسا للذكريات !. الذكريات أقرب لمتسكعين أو متمولين لا يكفون عن الدق على الباب الخلفي لعقلك . وكل منهم يأخذ جزءا منك يأخذ جزءا من اليقين الذي عليك التمسك به لو أردت أن تعيش حياة سهلة وتموت في سلام !

أنا عشت حياة طويلة مع البحر ، ورأيت صبية كثيرين تجلبهم أمهاتهم الباكيات كي يتعلموا حبة البحر . رأيت أباء يقفون يراقبون رحيل السفينة ، ثم يرحلون متظاهرين باللامبالاة عارفين أنهم قدموا للبحر تضحياتهم الكبرى . بعد هذا بأعوام قد أمشي على الميناء فالتقي تلك الصفة على ظهري ، وأسمع من يقول لي :

- « هل تذكرنى يا سيدى ؟ . أنا تعلمت حياة البحر معك .. »

هذه الصفة تجعلك تحترم حياتك وتشعر بأنها لم تكن هباء

وهذا الشاب جعلنى أذكر أشياء كهذه

كان القبطان يزمجر بلا توقف ثم فجأة غادر المكتب وألقى بنفسه فى عربة يجرها حصان ، وسرعان ما غاب عن عينونا . ذاب تامانا ولا أحسب أنسى رأيتة فى حيلتى بعد ذلك ، فليس عسيراً أن تميزه وأن تميز تابعه التاميل أبج الصوت . غالباً هو فى مكان ما من المحيط الهادى ..

فقط عندما انصرف هرع الشاب الذى يعلق ذراعه فى جبيرة يلاحقه منادياً :

- « كابتن .. أردت أن أقول .. »

لكنه كان قد ابتعد . أما الشاب الآخر فوقف بذات الوقفة المعتادة يرمى العربة المبتعدة ، ولم يتكلم .

حدث هذا كله فى وقت أقصر مما تحتاج اليه لتحكيه . وقد هرع الموظف البرتغالى الذى أرسله (أرشى) صديقى ليعنى

بالتطام ينظر ذات اليمين وذات اليسار مذهولاً . وقد وجد صعوبة جمة فى السيطرة على الشاب الذى يعلق ذراعه فى جبيرة ، والذي راح يصيح :

- « لن ألتقى التعليمات من هجين مثلك .. لو لم تكن برتغالياً لفهمت أن المستشفى هو مكاتى .. »

ووضع قبضة يده السليمة تحت أنف البرتغالى . لم أنتظر حتى أرى نهاية هذا الجدل ..

من الغريب أننى عندما قصدت المستشفى قبل المحاكمة بيوم لبعض شئونى ، وجدت فى عتبر الرجال البيض ذلك الفتى . والأغرب أن رفيقه ذا الشارب الكث كان معه .. يبدو أنه تسلسل وسط المشاجرة ليقیم عند ذلك اللص الإيطالى (مارياتى) الذى كان يملك خمارة وبقالة هنا ، ومن الواضح أن الرجل لم يكن غريباً عن الميناء . لأن (مارياتى) جطه يقيم عنده وأخفاه لأنه مدين له بخدمة ما .. خدمة غير قانونية طبعاً ..

- « مارياتى لا ينسى المعروف .. مارياتى لا ينسى المعروف . »

لا أعرف نوعية تلك الخدمة ، لكن (مارياتى) أحسن وفادته
وقدم له المأوى والطعام والخمر السام الذى يقطره . لكن الرجل
فر من الفندق فى اليوم الثالث بسبب هجوم مجموعة من
حشرات ام أربعة واربعين على غرفته ، وظل يجرى فى الطرقات
حتى وجده رجال الشرطة نائماً فوق كومة من القمامة أصابه
الذعر وحسب أنهم يأخذونه إلى الشنق ، لكنه وجد طريقه إلى
المستشفى حيث وجده .

جئمت جواره أحاول أن أروى فضولى . فنكرت له كلمة
(باتنا) بصورة عابرة . هنا اتسعت عيناه ومد يداً نحيلة كأنها
ممسات الأخطبوط وأمسك بكتفى وقال :

« باتنا .. أنا رأيته تغرق . لم يعد فى جسدى شيء
سليم إلا بصرى . وقد رأيته تغرق .. هم كانوا بطينى التصرف
فلم يفهموا إلا وقد صار نصفها تحت الماء .. وقد غنوا مغنا
هكذا ... »

وانفجر فى غناء مزعج كغناء الذئاب .. ثم أوقف :

« أؤكد لك أنه لا توجد عيون حادة كعيني فى هذه المنطقة
من الخليج الفارسى .. الا ان الضفادع .. كانت السفينة مليئة بها ..
لا بد من مراقبتها كما تعرف .. »

وسال العرق من جبهته بينما هب نسيم العصر على الأسرة
فى الضيق . واهتزت الستائر فشعرت بفشعريرة . وقبضت
مخالبه على كتفى بشدة .. وتشوه وجهه الطيب الذى يذكر
بوجه جندي عجوز ، ليصير بشعاً بفعل شيء كالخبث ..

« ملايين منها تزحف وتتغذى على .. ساهمها كالذباب ..
انتظر .. النجدة ! »

وراح يصرخ كالمجنون حتى إننى فقدت ثباتى وفكرت ..
خرجت إلى فسحة بالخارج فاستعدت روعى .. وبدأت أرتب
أفكارى ..

قابلت أحد الجراحين فى المعمر ، فقال لى :

« جئت لترى بحارك يا قبطان ؟ .. إنه رجل غريب .. لك أن
تتوقع ما حدث له . ظل فترة عند نيك الوغد الإيطالى أو اليونانى

وكان يشرب أربع أو خمس زجاجات من البراندى الرخيص يوميًا ..
 رأسه قد انتهى فعلاً . لكن رغم هذا هناك شيء من المنطق في
 هلوسته . لا اعرف كيف أعبر . هؤلاء عندما يهلوسون يرون
 ثعابين كما هي العادة ، أما هو فيرى ضفادع . ها ها ! ما زال
 قويًا بعد ما عاشه وبعد 24 سنة في البحار الاستوائية . لكننى أؤكد
 أنه لن يستطيع حضور التحقيق . هل شهادته ضرورية ؟ »

قلت له وأنا أخرج من المستشفى :

« يتأثّر .. »

الفصل الرابع

كانت السلطات كما هو واضح ترى نفس وجهة نظري . تم
 التحقيق في اليوم التالي ولم يؤجل ترضية للقاتون . لكن ظلت
 المعضلة قائمة . كيف أصيبت السفينة باتنا ؟ لم يبد أن هناك أملا
 في معرفة هذا

كانت الأسئلة منهمة على الرجل الوحيد الذى تبقى كى يشرح
 ما يحدث . كأنها طرقات بالمطرقة على صندوق معدنى لمعرفة
 ما فيه ..

كان تحقيقًا رسميًا ليس هدفه هو (لماذا) العميقة ولكن
 (كيف) السطحية . الأسئلة كانت تفتاد الفتى بعيدًا عما بدا لى
 الحقيقة الوحيدة الجديرة بأن تعرف ..

كان أحد المحققين هو (بريرلى) . (بريرلى الكبير) الذى
 لابد أنكم سمعتم عنه . كان يشعر بملل من هذا الشرف الذى
 أسبغ عليه ، فهو لم يتعرض لحادث في حياته ولم يرتكب أى
 خطأ .. وفى سن 32 كان يقود سفينة بخارية جبارة .. وكان
 يؤمن بجدارته لهذا وأن باقى البشر الذين لا يقودون السفينة
 (أوسا) التى تبلغ سرعتها 16 عقدة تصماء . ولو كنت أنت

إمبراطور المشرق والمغرب فلن يعاملك إلا بشيء من التعالي
كان يجيد إشعار الناس بالضالة ، ويعاملني بذات التعالي نكر
عزائي عن ذلك أنني أنشارك باقي البشرية في هذه المعمنة
وأن السبب ببساطة هو أنني لمست عظيمًا مثله . هذا عزائي
قليلاً ..

بعد هذه المحادثة بوقت قصير انتحر (بريرلى)

لقد نادى كبير الضباط الممن في وسط الرحلة التالية ، وألقى له
بتعليمات املاحة وممرعة السفينة واتجاهها وطلب منه أن يتولى
القيادة ثم نزل الدرجات الخشبية وكنبه يتسعه . أمر الكلب بأن
يصعد إلى ظهر السفينة وطلب من كبير الضباط أن يحبسه . ثم
قفز في الماء في اللظلام هذا ما عرفه الرجال عندما وجدوا
ساعته معلقة على حاجز السفينة وقدرك كبير الضباط أنهم
تركوه 18 ميلاً من خلفهم بهذه السرعة ترك خطبها للشركة
يقول فيه : إنه لم يقصر في خدمتهم ، وإنه عهد بقيادة السفينة
لضباط كفؤ يكبره في العمر بعشرين عاماً لكن الشركة أرسلت
قبطاناً آخر يتولى أمر السفينة واضطر كبير الضباط للاستقالة
برغم أن عنده ستة أطفال وزوجة ينتظرون على بعد آلاف
الأميال .

مائلنى العجوز وهو يضم يديه :

- « لماذا فعل ذلك يا كابتن (مارلو) ؟؟ . لو كان
عجوزاً عارقاً في الديون فقيراً لفهمت .. كان شاباً ثرياً
كامل الصحة . اجلس في البيت أفكر وأفكر حتى يوشك رأسى
على الانفجار .. »

الحقيقة أنني كنت قد قابلت (بريرلى) أيام التحقيق الذى
يرأسه ، وكان يمشى ساهماً مقطباً .. عندما قابلنى قال لى :

- « لماذا تصرون على أن تجعلونى أحمق ؟ »

كس من الغريب أن تصدر كلمات كهذه من رجل كهذا عظيم
الكبرياء والغرور . ثم أردف :

- « لماذا تريدون تعذيب ذلك الشاب ؟ . لقد فر قبطاته الوغد
ولم يبق سواه . ولم يعد هناك ما يمكن عمله له . لقد انتهت
أمره .. »

ومضى قليلاً صامتاً فقلت له إن قبطان (باتتا) يعرف كيف
يهرب وكيف يضى بنفسه . لكن الامر يختلف مع (جيم) . إن
الحكومة تحدد إقامته في نزل البحارة وليس معه ملزم في جيبه .
الهرب يحتاج إلى مال ..

قال الرجل :

« هل يحتاج لمال ؟ بالعكس .. يمكنه أن يتوارى في فبر تحت الأرض .. »

أثار شيء في كلامه رغبى فقلت :

« لا تتكر أن هناك قدرا من الشجاعة في مواجهة مسئولياته . خاصة وهو يعرف أنه لو هرب فلن يلاحقه أحد . »

« فلنذهب الشجاعة للجحيم ! أنا مستعد لدفع مائتى روبية كي يفر هذا الفتى . يجب أن يفهم . هذه فضيحة صادمة الفتى يجلس بينما كل هؤلاء البحارة الملاعين والملاحين يشهدون ضده بما يكفى ليحرقه بالعار ... »

قلت له إننى لا أرى جين هؤلاء البحارة مهم لهذه الدرجة . فقال لى فى غضب :

« هل تدعو نفسك بحاراً ؟ .. مشكلتكم هى افتقاركم للكرامة .. سوف أعطيك مائتى روبية مقابل أن تتعق هذا الفتى بالقرار

كانت هذه لمحة من (بريرلى) الحقيقى رأيتها قبل أيام من اللحظة التى منح فيها حقيقته وزيفه للبحر . لكنى لم أفعل ما طلبه منى كان فى طريقة كلامه ما يوحي بأنه لا يعتبرنى أكثر من حشرة ، وهذا جعلنى غليظاً ..

كما إننى كنت أدرك أن الفتى (جيم) يرغب فى أن يتطهر بتجربة قاسية ، وهذه المحاكمة العنيفة كانت نوعاً من التطهر له .. وصلت المحكمة متأخراً فى اليوم التالى ، فجلست بعيداً أراقب بريرلى .. إن لم تكن تلك نظرة الملل على وجهه بل هى نظرة السخط .

التقت عيناي مع جيم فجدتني نظرتيه من أية رغبة فى الكلام معه ، وأدركت أنى لن أكون ذا عون له . بعد انتهاء المحاكمة كان يغف وحده فى الشرفة فمررت خلفه ، هنا استدار لى وسألنى :

« هل قلت شيئاً ؟ »

نظرت فى عينيه بثبات وتحد وقلت :

« لم أكل .. »

كنا وحدنا تماماً كما لو أننا فى غاية مقفرة من البشر . عاد يسألنى عما قلت فشعرت بفيض شديد . يجب أن أعترف أنها من المرات القليلة فى حياتى التى شعرت فيها بأننى راغب فى مشاجرة حقيقية بالكلمات .. عاد يسألنى :

« لماذا ظننت تحملى فى طيلة التحقيق ؟ »

« لا أحسب من واجب أن نطرق للأرض طيلة المحاكمة من أجل مشاعرك .. »

هذه المرة بدأ يهدأ قليلاً فقال :

- « نعم معك حق . أنا اجتاز هذا وحدي .. »

كنت أرغب في أن أنهي هذا الموقف بكرامة وبلا اشتباك لا أُنْتَهِي شهرة الثلاثة أيام التي سأحظى بها باعتباري الرجل ذا العين السوداء نتيجة شجاره مع فتى (باتنا) . لقد تقدم نحوى خطوة وقال :

- « حتى لو كنت في قوة ستة رجال فنسوف أخبرك برأى فيك ! »

صحت :

- « لحظة .. قبل أن تخبرني برأيك في ، هلا تكلمت أولاً بأن تخبرني بما قلته أنا أو فعلته ؟ »

هنا نظر لى طويلاً ثم قال :

- « إذن لم يكن أنت .. لكنى حسبت .. سوف أجد الآخر .. »

واحمر وجهه الأحمر أصلاً بشدة . اعتقد أنه كان لا يتحمل ما شعر به من مهانة ، وربما خيبة أمل .. اعتقد أنه كان يرغب في مضاجرة طيبة تهدئ أعصابه .

انتهى هذا الموقف لكن ظل غامضاً لا ترى منه إلا لمحات عبر قماش ممزق . إنه يؤثر فضول المرء لكنه لا يكفى كي يرويهِ .

وفي تلك الليلة قبل الفتى أن يتناول العشاء معى فى فندق مالهار ..

الفصل الخامس

قال لي الفتى في قاعة التدخين :

- « أبى العجوز خورى العيسة قرأ بالتأكيد تفاصيل القضية في الجريدة معنى هذا أننى لن أعود للوطن ثانية . لن أستطيع مواجهته أبداً .. »

لقد فقد وظيفته وشهادته الملاحية وليس معه مليم يمكنه الحصول على عمل لو عاد للوطن لكن هذا آخر شيء يريده .

منذ أول يوم التقطتهم فيه تلك السفينة البخارية (ديل لاين) هو ورفاقه الأربعة ، راح الكل ينظر لهم فى شك . حكى القبطان قصة ملفقة فقبلها المنقذون . أنت لا تجرى تحقيقاً موسعاً مع هؤلاء الذين تنقذهم من الغرق فى البحر شعر ضباط (ديل لاين) بشيء (عفن) فى القصة لكنهم ابتلعوا شكوكهم . وعندما عاد للبر شعر أن كل البحارة يشكون

فيه ويزدرونه . لهذا عندما نزل البحارة أمضى معظم وقته فى السرقة . فقط كان يتناول الغذاء ويقول إنه لم يلفظ ثلاث كلمات كاملة لأى شخص .

- « تخيل شعورى وأنا أترك 800 بشرى على ظهر السفينة نائمين . لا يعرفون أى شيء .. لقد وثقوا فى .. عددهم أكثر بكثير مما يمكن أن تحمله قوارب النجاة حتى لو اتسع الوقت .. ماذا كان يوسعى أن يفعل ؟ »

أول ما خطر له هو أن يصرخ ويجعل هؤلاء النيام ينهضون مذعورين .. لكن الشعور بالعجز قهره وجعله يتصرف من دون صوت . لسانه جاف يوشك على شق سقف فمه . لقد توقفت المحركات لكن البخار يتصاعد منها ، والسفينة تهتز وتهدر كأنه وتر كمان مجنون ..

نظر للموتى .. نعم هم موتى ! لا سبيل لإنقاذهم ولو أيقظهم لما وجد وقتاً كافياً للنجاة .. القوارب لن تحمل سوى نصفهم وسوف يبدأ الصراخ والبكاء والعيول ..

هذه أشياء لن يخبر بها المحكمة ..

ثم ألمالة حاج وسبعة قوارب نجاة ربما كان مستعدا للموت ، لكنه لم يرد ان تصاحب الموت أهوال أخرى مثل الصراخ والتدافع والبكاء . عباء الجموع القظ

خطر له ان هناك وقتاً يسمح بتعزيز الحبال كي تطفو قوارب النجاة أربعة على جانب وثلاثة على الجانب الآخر

هنا اطبقت يد على كاحله ، ونظر نه رحل عجوز وقال

- « ماء ! .. ماء ! »

كان قد بدأ يعرف حروف اللغة وفهم ما قاله الرجل ، لكن أى ماء يعنيه ؟ . كان الرجل يعطله وقد بدأ النيام يصحون وهو يريد قطع الحبال بسرعة هكذا صريره بالمصباح بأقوى ضربة ممكنة فى وجهه ، فانطفئ المصباح ونهاوى الرجل .

لكن الرجل ركض وراءه من جديد وهو يحمل صبياً مريضاً .

- « هنا فهمت . كان ظمآن !! .. كان يريد أن يشرب ونحن نسقيهم أقل القليل والصبي محموم .. ناولته زجاجة الماء التى معى فشرب منها بنهم ثم راح يسقى الصبي .. »

عندما بلغ قوارب النجاة وجد القبطان والمهندس ينزلون أحدها ، فسأل القبطان :

- « ماذا تنوى عمله ؟ »

- « نرحل حالاً ! »

ثم يفكروا فى شيء . حتى الماليزيين اللذين كانوا بديران عجلة القيادة .. لم ينظر أحد لهما ..

كالمجنون أخرج مسكيناً وراح يمزق الحبال التى تربط قوارب النجاة ، بينما هم ينظرون له متأكدين من أنه فقد صوابه فعلاً .. وأمسك القبطان بيده وهمس بصوت عالٍ :

« أنت مجنون .. هؤلاء لو ركبوا القوارب فليسوف يظفرون بك ويمزقونك فى عرض البحر مطرقة ! .. ماين جوت (رياه) .. أريد مطرقة ! »

وهوى بالمطرقة على القفل الذى يربط القارب فتهاوى

عندها وجد جيم نفسه يثب لينحلق بالرجال فى القارب الذى نزل إلى البحر .. رأى جانب السفينة يتألق بالضوء الأحمر كانت عالية كالجدار ثم اختفى هذا الضوء ..

هكذا بدأت رحلة هؤلاء مع الخوف فى ظلام البحر الخوف من الموت الذى يطاردهم فى كل لحظة ومن الغريب ان السفينة لم تفرق .. كأنما الأقدار أرادت أن تستبقى هؤلاء الحجاج على الأرض كي يشهدوا بما حدث ..

كان رجال الطاقم يجذفون بأعنف ما استطاعوا .. القارب ثقيل لكنهم يدفعونه بالأيدى .. يجذفون بالأيدى .. من أجل الحياة الغالية ..

قال جيم :

« كنت أكرههم .. كنت أحتقرهم .. »

ثم بدأ يرتجف .. وقال كأنه يوشك على فقدان الوعي :

« لقد صرخوا ! .. ثمانمائة واحد كانوا يصرخون . »

كانت عاصفة دانية من الأفق فابتلعت نصف السماء وتوارت النجوم ، وطارت قبعته وعجز عن التنفس

قال وهو يبكى :

« ليتنى مت ' لكن التراجع كان مستحيلا . لقد وثبت من السفينة فكأننى وثبت فى بئر أبدية بلا قرار .. »

★ ★ ★

الفصل السادس

عندما نظر للخلف رأى أن مقدمة السفينة ما زالت في الأفق
أفزعته هذا الفرق لم ينته بعد .. كان يريد نهذه البشاعة أن
تنتهي فوراً ..

لا شيء حولهم سوى للسواد ولا يرون بعضهم .. أسنان
أحدهم تصطك في الظلام ..

كان يتمنى أن يرى المشهد كاملاً، ولم يدرك هذا هو
موقن أن الحقيقة ليست أكثر بشاعة ولا قسوة مما يصوره له
خياله . آلام وعذاب 800 رجل يلقون نهايتهم في الظلام الآن
ولا يفهمون للمسبب ..

« ثم ساد صمت .. صمت رهيب . لا يمكن أن يكون هناك
مكان أكثر صمتاً في الكون كله . لا يمكنك أن تفرق بين السماء
والبحر .. لا يوجد شكل واحد ولا يوجد صوت واحد . »

راح رجال الطاقم يرددون مراراً لا حصر لها :

« لقد ذهب ..! غرقت ..! ما من أحد كان بوسعه أن يعمل
شيئاً .. »

ولاحظ أنهم يتكلمون عنها كأنها كانت سفينة خالية .. لقد
أحسنت صنعا بالفرق فقد استحققت هذا .. وقال أحد المهندسين
وهو يرتجف :

« أنا سعيد .. أنا سعيد .. أنا سعيد .. »

وفجأة انفجر في البكاء ..

قال لي جيم :

« كنت أقل توتراً في القارب مما أنا الآن . لا خوف .
لا قاتون لا صوت .. لا عيون . حتى أشرقت الشمس في
النهاية . رأى القبطان أننا سنجد سفينة تنقذنا حتماً لأن هناك
سفناً كثيرة في المنطقة ، وهناك دخان يتصاعد نحو الجنوب
الغربي هنا بدأ الثلاثة يتفقون على القصة التي سيحكونها لمن
ينقذهم . لم أصغ . كنت مرهقاً .. مرهقاً . وشعرت بساقي
تتخاذلان من تحتى .. كئى لم أتم ساعة واحدة منذ مولدى . »

كانوا يتكلمون فيما بينهم عن الفتى : « الحمار السخيف
سوف يوافق على كل شيء . » .. « لن يتكلم » .. ثم رفعوا
الشرع وناموا تحته اتقاء للشمس بينما ظل هو وحده في
الخارج لا يبصر البحر من فرط الوهج .

- « كنت قد فقدت قُبعتي والشمس تحرق رأسي بلا توقف ،
لكن فى ذلك اليوم ما كان شىء قادراً على أن يؤذنى أو يصينى
بالجنون .. »

كان الفتى قد نهض الان فى بهو الفندق ، وراح يمشى جينة
وذهاباً ويده فى جيبيه الشمعة الخافتة تتوهج ومن خلفه الليل
المظلم والنجوم برغم هذا كنت أرى فى ضوء غمامض رأسه
الصبيانى كأنه دون قصد يكشف عن الطفل بداخله كان نوع
الشباب الذى تمنى أن تراه أمامك نوع الشباب الذى تمنى
لو أنك كنته يوماً ..

لا أعرف إلى أى حد بدوت له مسناً او حكيماً ، لكنى أعرف
يقيناً أننى لم أكن نصف ما حسبه ..

قال لى :

- « القصة التى قاموا بتلفيقها لم تكن قصة بالضبط ، لكنها
كذلك لم تكن الحقيقة . شىء تعرف أنت فقط أنه كذبة . لم يكن
هناك حاجز واضح فاصل بين الصواب والخطأ فى هذه القضية
لو أننى ظلت على السفينة لغطت كل ما بوسعى كي أنجو
تسببت بقطعة خشب أو مجداف لأفلح حيا .. كنت سأطوق
لساعات وغالباً ما كان سيتم إقاذى .. »

ثم لكم صدره لكمة لفرعتى ، وقال :

- « شعرة !.. مقدار شعرة بين هذا وذاك .. لكن من الصعب
أن ترى شعرة وسط هذا الظلام .. لقد فقدت حياتى بريقها وكل
ما يجعلها مبهجة .. »

بعد صمت طويل قال :

- « وجدتنا سفينة (أفونديل) قبل الغروب . التقطنا وعلى
متنها حكى الثلاثة قصتهم . زعموا أننا أوقفنا السفينة وقيمنا
حجم الأذى ثم بدأنا إنزال القوارب .. لما نزل القارب الأول سألت
السفينة وغرقت فجأة بينما نجونا نحن .. هكذا كانت قصتنا ..
هل تذكر الصرخات التى حكيت لك عنها ؟.. الصرخات الخافتة
التي سمعتها .. أنكر الباكون أنهم سمعوا أى شىء ، ثم نزلنا
على الشاطئ .. ومرت أيام ثم جاءنى ذلك الشاب .. أخبرنى أن
الباتنا نجت .. أنقذتها سفينة حربية فرنسية .. جرتها خلفها إلى
(عدن) .. هناك تحقيقات .. »

ومن جديد ساد الصمت ، والحقيقة أن قدرتى على سماع ما
هو أكثر قد تلاشت ..

كان يقول :

- « كيف لي أن أعرف أن السفينة كانت طافية ؟ لقد غابت أضواؤها غاب . لو عرفت أنها موجودة لعدت لها وصعدت لظهرها لنصحت هذه الغلظة القسم لك . هل تصبني كذلياً ؟
كيف تجرؤ على الشك في كلامي ؟ أؤكد لك إنني لو رأيت ضوءاً لما كنت هنا معك .. »

لم أبتلع قصة غياب الضوء هذه ، وقد قيلت في المحكمة ففرب
قبطان عجوز يجلس جوارى لحيته البيضاء لتجرح خدي ، وقال
- « بالطبع .. لابد أن يكتبوا .. »

لكني لم أعتقد أنهم كذابون . فقط كانوا في ظروف نجحت
تتخيل أشياء . ولربما كان وضع السفينة نفسه لا يسمح برؤية
الضوء ..

القدر أرسل للسفينة الطافية الموشكة على الفرق سفينة
فرنسية حربية ، أثار دهشتها هذا الصمت وهذا المكون .
صوب القبطان الفرنسي نظارته المقربة إلى سطح السفينة قرأى
عشرات بل مئات العيون التعممة الصامتة تنظر له .. لا توجد
علامات على أن هناك وباء حل بالسفينة . أطلق التحية لكن لم

يرد احد على ظهر الباقتا هكذا أرسل قارباً يستكشف . لم يفهم
أحد ما يقوله هؤلاء العرب لكن الكثرة كانت لا تحتاج إلى
شرح . لم يكن أحد يجيد لاحتيرية ليتفاهم مع الماليزيين كذلك
هذا هو ما قاله لي ملازم فرنسي عجوز قابلته فيما بعد في
الهيئة فرر القبض لغرضي جر السفينة جراً إلى أقرب مرفأ
بريطاني تنتهي عنده مسئوليته .

بعد ثلاثين ساعة وصلت السفينة وتم إخراج الركاب سالمين .

الفصل السابع

وجدت لـ (جيم) وظيفة فى نقل المؤن إلى السفن ، وهى وظيفة لا تناسب أبداً طموحاته القديمة لكنها الشيء الوحيد الذى وجدته ويسمح له بالاحتفاظ بجسده وروحه معاً .. كان يحلم بأن يكون فرس سباق عظيمًا ، فوجد نفسه فى مهنة بلا مجد كأنه حمار يحمل أثقالاً .

اعترف أنه أدى عمله بإخلاص ودون أن ينطق بكلمة ، فيما عدا لحظات نادرة عندما كانت قصة (باتنا) تعود للسطح للأسف هذه الفضيحة فى البحار الشرقية لم تمت قط

كنت قد فارقته بعد ذلك العشاء فى فندق مالابار وسيف عدالة بلاده فوق عنقه . فى الغد بل اليوم لأننا تجاوزنا منتصف الليل كان المستشار صارم الوجه سوف يهوى بالسيف عليه . عشاؤنا كان العشاء الأخير لرجل انتهى أمره .. كان مثنباً فعلاً . برغم هذا تمنيت ألا يتعرض لتفاصيل التنفيذ .. تذكرت خطة (بريرلى) عن تهريبه . معى الروبيات .. الكثير منها ويمكن أن أرتب هربه وأكتب له خطاب توصية ..

لكن الفتى رفض فكرة الفرار تماماً شاكراً .. وقال كأنه يكلم نفسه :

- « بعضهم هرب أو تمارض .. لا أحد منهم يقدر على مواجهة مسئولية ما فعله . لكنى لن أفر .. لن أنكمش . »

فقدت ثقتى بنفسى وأعتقد أنه فقد ثقته فى كذلك .. قلت له :

- « أعتقد أنك نلت كفايتك .. »

قال :

- « لاكون صريحاً .. أنا كذلك أعتقد هذا .. »

قلت له وهو يأخذ قبعته :

- « أريد أن أراك قبل أن ترحل .. »

- « لا أرى ما يمنعك من هذا .. حكم المحكمة لن يجعلنى خفياً .. نست محظوظاً لهذه الدرجة . »

وابتعد ليبتلعه الليل .. كان أحرق مروعاً .. مروعاً .. وهو لم يتجاوز الرابعة والعشرين بعد ..

فى الصباح تناولت إفطارى متعجلاً ولم أذهب لسفینتى ..

ذهبت للمحكمة .. سيكون هنا إعدام لكن لم تكن هناك حشود تطلب الرحمة ، ولا غمامة توضع على عين المجرم فقط هناك أوراق شجر وكثف عارية تبرز من سارى هندی ومجموعة من رجال الشرطة المحليين غارقين فى خيالات التجسد وتذسخ الأرواح ..

بالله عليك .. كان حو المحكمة أسوأ بكثير مما لو كان الأمر يتعلق بقطع رأس . هناك جو عدم من النهاية والحنمية لن ينهيه سقوط الفأس على الرأس هذه المحاكمة فيها كرقصة الإعدام مع كل برودة للفنى .

لا أحد يعرف حتى اللحظة سبب اصطدام السفينة (باتنا) لكن هناك سفينة نرويجية غرقت فى هذه الإحداثيات . ومن الوارد أن يكون حطامها قد ظل يبحر تتقاذفه العواصف حتى اصطدمت به (باتنا) فى الظلام .. إنه كابوس الملاحة الليلية

أفقت من خواطرى على صوت المستنشر يقوز وعيناه الحادتان تلقيان لمحات خاطفة على (جيم)

- « .. والتخلي وقت الخطر عن الأرواح والملوك التى عهد لهم بها .. لهذا .. تقرر إلغاء شهادة الملاحة . »

انتهى الأمر وتم الإعدام فعلاً ..

بدأ الناس يتفرقون . ونهض الفتى متجهًا للباب .

لحقت بجيم فى طريقه للشارع ، وحاولت أن أمسك بذراعه معزياً لكنه نظر لى كأتى الشر مجسداً .. وابتعد .. كان الشارع طويلاً وقد ظل فى مجال بصرى لفترة ..

بمجرد أن اختفى التفتت اثنين من الأوغاد المشهورين فى البحر ، والذين لا يمكن أن يثنى بهما أحد .. كانا رجلين مغامرين مجنونين تماماً ، وقد عرفا أنني أعرف الفتى فعرضوا على أن يعمل معهما فى مهنة جمع سمك السمك هناك جزيرة فى البحر وجدها أحدهما بها كمية هائلة من هذه القاذورات ، وسوف يكون الفتى مسئولاً عن مراقبة أربعين من العمال مسلحاً ببندقية وحزام من الطلقات .. لا ماء .. شمس حارقة .. فضلات حتى الخصر .

قلت لهما إنها مهنة لا أختارها لأحد أعدائى .. فقالا :

- « تذكر أن الفتى لم يعد صالحاً لشيء .. »

عدت للفندق مفكرًا ، ومن الغريب أن الفتى جاء عندي ليمضى ليلته .. عرفت أنه اختار هذا المكان لأنه يريد أن يكون وحيدًا فى وحدته لم أتكلم معه لأننى خشيت أن يكون عنيفًا معي كما حدث ظهريًا ، بل تركته له واجسه وآلامه ورحلت أكتب . أكتب بلا انقطاع وأنا أرمق ظهره إذ وقف فى الشرفة ينظر للضوء شارد الذهن .. كان يشهق بعنف كلما هو جالس للهواء ..

سوف يأتى الوقت الذى يصير فيه الفتى محترمًا جديرًا بالثقة ومحبوبًا .. تحيط به هالة أسطورية من القوة ، وهذا حقيقى .. حقيقى كجلستى معكم الآن ..

إنه يملك حلمًا ، ومن دون هذا الحلم ما عرفت الأرض مغامرًا أو عاشقًا .. لكن كان عليه أن يعانى كثيرًا قبل أن يحقق حلمه هذا ..

فجأة توجهت السماء وارتسمت لى حدوده الخارجية سوداء بينما أضيئت الغابة كلها ، ثم دوى صوت الرعد وانهمر المطر مدرارًا ..

أغلق باب الشرفة وعاد لى حيث جلست على المكتب وطلب منى لفافة تبغ . ناولته الصندوق فأشعل واحدة ، وقال :

- « للرياح الموسمية مبكرة هذا العلم .. »

هزرت رأسى موافقًا فجلس بقربى وظهره لى بينما أنا أنهى كتابة العناوين على المغلفات ..
قل :

- « بالتأكيد هناك فرصة أمام الإنسان كى يصلح ما فاته ويجد ما ضاع منه .. ربما لو كانت الحياة طويلة بما يكفى . »

- « لا تعتمد على هذا .. »

قل لى وهو يطوح للفاقة :

- « وداعًا .. »

واتجه إلى الباب ، فصحت به مذعورًا :

- « انتظر ..! لا ترحل ..! هناك .. يمكنك أن .. »

- « لن أقبل أن تدعونى على العشاء ثانية .. »

- « وأنا لم أفكر في هذا .. »

وكان المطر ينهمر بغرارة في الخارج وتصلب .. من .. عاد
ليجلس .. كنت أدرك انه لو ضاع مسمى في الظلام فلن اراد اذا
ثانية . قلت له :

- « يجب أن تفكر في الغد كيف ستعيش كيف مسائل

على الأقل دعني أساعدك .. »

- « لن يمكنك مساعدتي .. »

- « أقرب بهذا لكني مستطيع مساعدتك بحرفه الذي اراد

منك هذا الخطاب الذي كنت كتبه موجه لرجل .. اضرب منه

خدمة قط فيه جعل بمسمى مسؤولا عن بلا تحفظ هل تفهم

مضى هذا ؟ »

نظر لي المطر في الخارج بدأ يرحل ، والشمعة تتوهج كأنه

نصل خنجير .. وهناك صوء خافت يتمسك من المستنكر معنا

انقرب الفجر ..

قال :

- « لن تتضليق لأننى لم أقل شيئاً مناسياً . ليس هناك ما

يقال .. سوف أبدأ من جديد بصفحة خالية . »

- « لا تقل شيئاً يا صلبى .. »

اتجه للباب من جديد وخرج ..

وحدى ظلمت مع الشمعة التي لم تنطفأ لمسبب مجهول صفحة

خالية هل هذا ما قاله ؟ كان قد رنا لم يحفر بحروف لا نزول

على الصخر ..

الفصل الثامن

بعد ستة أشهر كتب لى صديقى الذى أوصيته بـ (جيم) وهو عزب تجاوز منتصف العمر عريب الأطوار ولديه مضرب أرز وقد أدرك من دفء توصياتى أننى أريد متابعة أخبار (جيم) قال لى إنه سعيد بوجوده عنده فى داره . هو الذى لم يتحمل أى بشرى من قبل . ومن المؤكد أنه على حق . كان (جيم) رصينا مهذباً .. لكنه على قدر من السذاجة .

قال صديقى :

« لا أقدر على تصور أن هذا الفتى منهم بشيء أكثر من سرقة بعض الفاكهة من بستان . هل هو أسوأ من هذا ؟ . على كل حال قد مر وقت طويل منذ صرت أنا وأنت قديسين . لذا نصينا أننا كنا نخطئ فى شبابنا .. لا تقلق فأنا لن أسأله عن ذنبه . »

سررت من الخطاب وشعرت بأننى أحسنت التقدير . بعد هذا قمت برحلة لأسبانيا ، فلما عدت فوجئت بخطاب آخر من صديقى يخبرنى أن الأمور على ما يرام وأن أية ملاحق لم تخفف من متددة

الطعام بعد . لكنه باع مضرب الأرز وتقاعد . لكن الخطاب الثانى كان من (جيم) نفسه ' . هل تصنفون هذا ؟ . فرصة فى المليون ! كان جيم يكتب لى من مكان يبعد 700 ميل عما كنت أتوقعه . وقد قلل فى خطابه :

« أنا الآن مع شركة (إيجستروم وبليك) لإمدادات السفن .. أخبرتهم أنك قلو استطعت أن تكتب لهم رسالة توصية نظمت بتعيين دالم .. »

طبعاً كتبت له الخطاب . وقابلته بعد هذا بعام ..

حدثنى عن صديقى الذى عمل عنده .. كان أقرب إلى أب له .. وفى النهاية وجد (جيم) نفسه مضطراً أن يحكى له قصة (الباتنا) بالتفصيل ، وبعدها طلب الرحيل .. كان يود الابتعاد عن هذه القصة باى ثمن ..

« هم مهذبون جداً معى هنا .. »

فى هذه المهنة المرهقة كان ينتظر دخول السفن إلى الميناء . ثم يركب قارباً ويحاول أن يكون أول من يصل هناك . تركته يتأهب للحاق بسفينة جديدة ، ورحلت فلم أعد إلا بعد ستة أشهر .

قابلت (إيجستروم) نفسه فرحب بى وأخبرنى أن (جيم) لم يعد معهم ..

- « لقد سيب لنا الكثير من الأذى واستغلنا ثم رحل . »

جلست مندهشاً أحاول أن أجد تفسيراً لهذا الكلام فقال لى (بليك) الشريك الثانى :

- « رجل كهذا لا يقصد مكاناً بعينه .. ذات مرة رست هنا سفينة عليها حجاج عائدون من البحر الأحمر .. وكانت شفرتان من مروحيتهما قد تحطمتا . لقد مرت على هذا ثلاثة أسابيع .. »
هنا سألته :

- « هل تكلموا عن (الباتنا) ؟ »

نظر لى فى دهشة كأننى ساحر وقال :

- « نعم .. كيف عرفت ؟ .. كان هنا قبطان أو قبطانان يتناولون شطيرة مع البيرة .. وكان جيم معنا . راح القبطان يراقب سفينة الحجاج ، ثم بدأ يحكى لنا عن قبطان (باتنا) وكيف كانت سفينة سينة وبرغم هذا جلبت لمصاحبها مالا كثيراً .. كان

معنا رجل عجوز يدعى القبطان (أوبريان) وكان يصفى للكلام وفجأة ضرب الأرض بعصاه غاضباً وصاح :

- « عم تتكلمون يا فنان ؟ لقد كانت قصة (باتنا) هذه عارا على الجنس البشرى كله .. إننى لأخجل أن أوجد فى غرفة واحدة مع واحد من طاقم تلك السفينة . »

ثم بهض غاضباً بلا سبب واضح وغادر المكان .

فوجئت بجيم يذئو منى والشطيرة فى يده ويقول لى :

- « أنا راحل .. »

حسبته يقصد أنه سينهى عمل اليوم ، لكننى عرفت أنه يقصد الاستقالة فلصقنى الذهول .. لا يمكننى أن أجد فتى كهذا كل يوم .. شيطان حقيقى فى قيادة القوارب والتوغل فى البحر للصعود على السفن .. ولكم من قبطان قال لنا إنه مجنون حقيقى .. وسط الضباب والعواصف تجده تحت مقدمة السفينة ثم يصعد على متنها كأنه الشيطان .. لم تكن لأية شركة أخرى أية فرصة (جيم) هذا يصل معنا .. هكذا قلت له :

- « هلم لا داعى لهذه الضوضاء .. الأمر يتطرق بزيادة راتب يا جيم فقل لى الرقم الذى تريد .. »

لكنه نظر لى فى ثبات وأدركت من عينيه أنه قد فرقنا بالفعل ..

صحت فيه :

- « ماذا ضايقت لهذا الحد أو أثار رعبك ؟ .. أنت لا تملك نكاء
الفلران التى لا تفارق سفينة صالحة أبداً .. هذه الشركة لن
تغرق .. »

لكنه قال :

- « وداعاً .. أنت رجل طيب يا (إجمستروم) لكن لو عرفت
أسبابى فلن تبذل جهداً للاحتفاظ بى .. صلتنى ! »

وهز رأسه كأنه لورد لا أعرف ما دهاه . هو لم يعط نفسه
الوقت الكافى ليقرغ من التهام الشطيرة ، وأعتقد أنه لم يكن يقدر
على بلوغ الباب . لقد رحل بوجه كالح بفزع الأطفال ، وصرت
عاجزاً عن أن أجد واحداً ممتازاً مثله . من أين جئت بهذا الفتى
يا قبطان (مارلو) ؟

هنا شعرت بأننى مدِين له بتفسير فقلت :

- « كان من ضباط تلك السفينة (بلتنا) عندما غرقت .. »

تصلب ونظر لى فى ذهول .. ثم قال :

- « ومن يأتى بهذا بحق الجحيم ؟ »

- « لا أحد .. »

تحسس ساقبيه وقال :

- « لقد قلت له إن الأرض كلها لن تتسع لمزاجه النارى
هذا .. »

الفصل التاسع

عرفت المزيد من أخبار جيم بعد هذا ، فسمعت أنه عمل فى غابات تايلاند لفترة . تشاجر فى إحدى الحالت مع مستشار بريطانى للقوات الملكية السيامية . يبدو أن هذا الضابط أفرط فى احتساء الخمر وقال ملاحظة مهينة عن جيم . وكان مصير الضابط أن يسقط فى النهر لأن الحاة كادت لها شرفة تطل على النهر ، حيث انتشله قارب صينى . كان هذا سينا لأن الفتى حتى اللحظة حافظ على صورته كمُخص مهذب وديع ، لكن شعرة واحدة تفصله عن نعت البلطجى .. لكنى بالطبع لم أكن أنوى أن أغسل يدى منه .. وقد قمت بنفسى بإخراجه من باتجوك على سفينتى ..

لم يدر بيننا كلام تقريباً طيلة هذه الرحلة ، وعندما كنا ننقرد مغاً لم نكن نعرف ما نفعله بعرونا ..

كان على أن أجد حلاً لهذا الفتى ..

عرضت المشكلة على صديق لى يدعى (شتاين) .. كان شتاين تاجراً هولندياً مولفاً بجمع الحشرات وهو يهوى مساعدة

البريطانيين لأنه ممتن بلا حدود لخدمة قدمها له تاجر سكوتلندى فى شبابه . عرف (شتاين) على الفور أن جيم رومانسى .. وهذا شيء سئى للغاية لكنه كذلك جيد .

اعتقد أنكم لم تسمعوا عن (باتوسان) قط .. لا مشكلة .. هناك كواكب كاملة تحيط بنا فى جلستنا هذه لم يسمع بها أحد ، لأنها خارج نطاق نشاطاتنا ولا قيمة لها إلا لعلماء الفلك الذين يتلقون راتبهم كى يتكلموا عنها . كذا كانت (باتوسان) .. لا يتكلم عنها سوى عدد محدود فى دوائر الحكم فى (باتافيا) .. لم يذهب أحد هناك قط ولم يرغب أحد فى ذلك .

لكن (جيم) ذهب هناك . لو كان (شتاين) قد أرسله لنجم بعيد لما كان الأمر بهذه الغرابة ..

كان (شتاين) يعرف عن (باتوسان) أكثر من أى واحد آخر .. اعتقد أنه ذهب هناك حتماً .. كنت قد قلت له ما قاله (بريلى) المسكين :

- « دعه يزحف عشرين قدماً تحت الأرض وبطل هناك .. »

فنظر لى وقال :

- « هذا ممكن هناك (باتوسان) .. والمرأة قد ماتت كذلك على كل حال .. »

لم أفهم ما يقصده لا أعرف علاقة لشتلين بليّة امرأة سوى تلك الفتاة من الملايو التي كان يحبها ويطلق عليها (زوجتي الأميرة) . فهمت فيما بعد أنه يتكلم عن فتاة أخرى من الملايو نصف هولندية تزوجت في جزر (ملقة) من برتغالي يعمل في إحدى المستعمرات . يبدو أن هذا الرجل كان شخصاً غير سوى لكن (شتلين) عينه مديراً لشركته التجارية في (باتوسان) من أجل خاطر زوجته فقط . الآن ماتت المرأة ولم يعد مضطراً للاحتفاظ بهذا الوغد هناك لذا صار المنصب شاغراً . كان اسم البرتغالي (كورنيليوس) وهو رجل يعتقد أنه ينال أقل مما يستحق على (جيم) أن يأخذ منصب هذا الرجل ، وإن كنت اعتقد أن الرجل لن يفارق الجزيرة .

إن باتوسان مقاطعة نائية .. هناك على بعد أربعين ميلاً من البحر ، يمكنك أن ترى جبلين متلاصقين يفصلهما أخدود عميق هو في الواقع مجرى لمياه السيول . كذلك ترى جبلاً عملاقاً تشطر نصفين .. ومن بيت (جيم) الجميل ذي الطابع المحلي يمكنك

أن ترى القمر مكتملاً كأنه يطفو فوق المضيق حتى يتحرر .. أو كأنه يقر من قبر يتشابح ..

ذات مرة قال (جيم) وهو واقف جوارى :

- « تأثير ساحر .. ليس كذلك ؟ »

في صوته نوع من الفخر المضحك كأنه ممنول عن هذا المشهد .. لقد صار ممنولاً عن أشياء كثيرة في باتوسان بعضها أكثر تعقيداً من هذا القمر أعطيته سدسى وصندوقاً من المعدن يصلح لحفظ حاجياته . وقد قال لي واعدًا :

- « سوف تسمع على كثيرًا .. »

الحقيقة أنني كنت أتوق لهذا . تمنيت أن أضع جيم في مكان بعيد وأتخلص منه لأنني كنت عازماً على العودة للوطن ..

كنت عائدًا للوطن أخيراً .. كلنا نحارب وراء البحار من أجل المال أو المجد أو كسرة خبز ، لكننا نعود للوطن كأننا نسلم كشف حساب . نعود لنواجه رؤسائنا وأهلنا وأصحابنا ومن نطيعهم ومن نحبههم .. حتى هؤلاء الذين لا أقارب لهم في

أوطانهم يحتاجون للعودة كي يلاقوا روح الوطن ذاتها فى النهاية يجب أن تعود بضمير مستريح .. يجب أن تلمس الجائزة بيد نظيفة وإلا جفت وتحولت إلى أوراق . هل تعتبر كلامى مفرطاً فى عاطفته ؟ .. ربما ..

كل نبته لها الأرض التى تستمد منها حياتها وقوتها . وجيم كان يعرف أنه لن يعود لوطنه ثانية أبداً

برغم ذلك كان هذا أنسب موضع له . ثلاثون ميلاً من الأدغال تفصله عن عيون العالم . صخب الموج الأبيض يعلو على صوت أبة سمعة سيئة . نيار الحضارة يتدفق من الشمال لكنه ينقسم يمينا ويساراً ويترك باتوسان بناسها البسطاء البدائيين .. مهملين مغرولين ..

ربما تسمع اسم هذا البلد فى قصص الرحلات القديمة . لأن تجار القرن السابع عشر ذهبوا هناك من أجل الفلفل .. وحب الفلفل كان ناراَ تنقد فى صدور المغامرين الهولنديين والأمريكيين فى عصر جيمس الأول . من أجل كيس من الفلفل كادوا يقطعون حلاقيم بعضهم ويبيعون أرواحهم من أجل الفلفل تحسوا الموت والأسر والجوع .. لقد جعلهم أبطالاً! ومن أجله تركوا عظامهم تجف على شواطئ مجهولة ..

كان هناك فلفل كثير فى باتوسان واتبهروا بحكمة وعظمة السلطان .. لكن بعد فترة نضب معين البلد من الفلفل ، ولم يعد السلطان سوى صبي متخلف عقلياً له إبهامان فى كفه ، وأعمامه هم الذين يحكمون فعلاً .

كان (شتاين) من القلائل الذين يملكون شركة فى هذا البلد بإذن خاص من الحكومة الهولندية ، وإن كانت تلك الأخيرة قد جعلت سلامته مسئوليته الخاصة ، وهو كان صريحاً مع رجاله فأخبرهم بهذا لكنه أجزل لهم العطاء

تعرف جيم على من يدعى (دورامين) وهو من أهم الرجال هنا ، وقد كان صديق مسر (شتاين) فى هذا البلد ، وكان هذا الأخير يطلق عليه (زميل الحرب) ..

كانت هناك قوى معارضة ومنها الراجا (الإيج) أسوأ أعمام السلطان الذى أباد كل الملايين فى البلد ، دون أن يمنحهم مجرد خيار الهجرة . لقد قبله (شتاين) ووجده عجوزاً قذراً له عيان شريرتان يبتلع قرص أفبون كل ساعتين . كان (شتاين) يقدم له (جيم) على سبيل الاحترام ، وكان هناك نحو أربعين رجلاً فى الغرفة ..

لقد وقف جيم وسط هذه القذارة والسحنات الداكنة ، بثيابه
البيضاء النظيفة وشعره الأشقر الذى بدا أنه يمتص كل انعكاس
شمس فى القاعة . لم يبد بشرياً ولولا أنهم رأوه يركب قارباً
لحسبوه هبط من السماء .

عندما يقم جيم هنا فلسوف يكون كأنه لم يوجد قط بالنسبة
للعالم الخارجى . لن يجد قدمين يقف عليهما سوى قدميه .

قال جيم لنفسه مغمضاً :

« لم أوجد قط .. كم أحب هذا ! »

لو كان يفهم ما قلته ويعرف ما أعرفه لفر على أول سفينة
تغادر هذا المكان . ولقد بيت (شتاين) طالبا تعليمات جديدة .

الفصل العاشر

كان ساحل باتوسان - كما رأيته بعيني بعد عشرين - مستقيماً
كئيب أمامه محيط ضبابى . هناك غابات كثيفة تحتها طرق حمراء
تبدو من بعيد كأنها خطوط الصدا . هناك قرية صيادين عند
مصب النهر . النهر نفسه كان مغلقاً للملاحة منذ فترة ولكنه
صالح الآن .

عندما زرت البلدة جاء زعيم قرية الصيادين ليقود السفينة
لنا . وتكلم معى أنا شاتى رجل أبيض يتكلم معه فى حياته .
الأول كان اسمه (توان جيم) .. قالها بمزيج من الألفه
والرهبة . لقد كان وقرته تحت حماية هذا الرجل .. عندها
عرفت أن جيم حقق ما وعده . سوف أسمع عنه .

كان أهل القرية مندهشين لقدود جيم وكرمه واصراره على
البقاء هنا . هذا شيء لم يسمعوا عنه قط . ماذا سيقول الراجا
لو سمع هذا ؟

جيم قد ترك البحر بأمواجه العالية المفرقة التى ترمز لكفاح
الإنسان . من أجل الغابات الساكنة التى حفرت جذورها فى

القربة . ينتظر الفرصة التي يكشف فيها عن فضائله كأنه عروس شرقية تنتظر أن يزيح زوجها النقاب عن وجهها .

في القارب راح يراقب النهر ويتسلى بتخمين ما إذا كان هذا الجسم الأسود غصن شجرة أم تمساحاً . ثم عدل عن اللعبة لأنها مملة .. كلها تماسيح ..

عندما لمس القارب الضفة ترجل الرجال مبتعدين بسرعة ، وانفتحت بوابة عملاقة . وعلى الفور رأى أمامه قارباً مليئاً بالحراس المدججين بالسلاح لو كان ممدسه محشواً لفقد أعصابه وقتل اثنين أو ثلاثة منهم ولمات بعدها ، لكن ممدسه كان فارغ فعرف أن عليه التصرف بثبات وبثقة ..

قال له الرجال إن الرجا يريد مقابلته كان التتكو (الأبح) لا يتمتع بالشجاعة برغم كل ما يحكيه عن بطولات شبابه . وكذلك كان الكل يعرف كيف يعامل سجناءه . انه يقدم القهوة لضيوفه وهي سائل مقررز حقاً ، لكن ليس بوسعك أبداً أن تعرف إن كان دس لك سمّاً أم لا .. مناقشاته مع رجاله تنتهي غالباً بخنجر إندونيسى ينهى كل شيء ..

كان (جيم) يحكى لى هذا كله ونحن نقف فى شرفة بيته قال لى :

- « تصور أنه لا يوجد بيت فى قرية فى هذه الأغال إلا ويثق بى ؟ .. يثق بى أنا بعد كل ما جرى لى .. »

الحقيقة أن هؤلاء القوم قد ظفروا به .. جعلوه ملكاً لهم حتى آخر قطرة فى دمه وحتى آخر زفير من رنتيه . لكننى شعرت بفخر .. وشعرت كذلك بالرضا ليس عن شجاعته فأنا اعتبرها شيئاً معتاداً مفروغاً منه لكن عن صفاته الأخرى . عن جاهزيته وعن بقلته وقدرته على استيعاب ما هو غير معتاد . هذا العمل أعطاه القدرة على أن يشفى من ذكراه القديمة ولهذا أحب هذه الأرض ، وإن كان أحبها برقة ممزوجة بالازدراء .

واصل سرد لقله مع الرلجا فقال :

- « هكذا ظللت فى السجن ثلاثة أيام .. مكان قذر ولم أظفر بطعام كذلك أحدثت صخباً فجاءونى أخيراً ببعض الأرز وسمكة مقلية صغيرة الحجم . تبّاً لهم !! لقد أسلمتهم ممدسى بمجرد أن طلبوه .. كنت أبدو كأحمق وأنا أمشى بممدس خال من الفخيرة .. »

أشار (جيم) إلى جزء من السياج محطم فى الجهة الشمالية وقال :

« من هنا وثبت هارباً في اليوم الثالث من سجنى لم يعيدوا إصلاح السياج .. وثبة ممتازة أليس كذلك ؟ .. ثم عبرت هذا المستنقع لكننى سقطت فيه ظننت انى انتهيت . تركت حذائى هناك . كنت احاول الخروج وانا افكر فى مدى سهولة أن يخرق ضلوعى رمح هنا وانا مقيد فى الوحل .. »

أعدوه للامس حيث نزل فى غرفة صيقة .. كان جاعاً برغم كل شيء وقد دارت بصند مصيره مناقشات طويلة حامية مع الراجا . من حين لآخر يأتيه وغد يسله .

« هل الهولنديون ينوون الاستيلاء على البلاد ؟ . لماذا جنت هذا البلد القصر ؟ الراجا يريد أن يعرف إن كان بوسع الرجل الأبيض إصلاح ساعة ؟ »

وبالفعل جاءوه بساعة صنعت فى نيوانجلند وقد حاول إصلاحها بسبب المثل وحده ..

كان يعانى بشدة . وهكذا وجد نفسه من جديد وبلا أى تفكير يثب من هذا الارتفاع هارباً .. طار من فوق رماح الحراس فى وثبة كادت تهشم عظامه فعلاً أمامه كانت مجموعة من بيوت باتوسان على بعد 400 ياردة .. فقط عندما أدرك أنه لا يقدر على تحريك قدميه تقريباً ، عرف أنه فعل ما فعل .

راح يعبر نهيراً ويقبض على الوحل بيده .. يتعثر .. يسقط على رأسه .. يتذكر قاعة المحاكمة فيشعر أنه كان سعيداً جداً فى تلك الأيام ..

بكى وشهق وسعل .. راح يتذكر الزنزانة والساعة .. لبيته يقدر على العودة ! أخيراً خرج من البركة واستلقى على الشط .. ينظر للسماء ولا يصدق أنه نجا .. لن يظفروا به إلا بهندقية بعدة للمدى ..

خطر له أنه بحاجة للنوم ، وبالفعل نام بضع ثوان .. ثم صاح ليجد أنه مغطى بالطين بالكامل . خطر له أنه الأبيض الوحيد وسط آلاف الأميال .. لا عون .. لا أحد يشفق عليه ..

ركض نحو البيوت فصرخت بعض النسوة وفررن يميناً ويساراً .. أما الشيوخ فتصليبوا وهم ينظرون له فى رعب . كان فرغاً طائراً .. لكنه استطاع أن يصرخ بكلمة واحدة :

« نورامين ..! نورامين !! »

فقط سقط على الأرض وسمع صوت طلقات من بعيد . لكنه نجا . وهرعت زوجة (نورامين) العجوز تصب الماء البارد على رأسه وتسقيه كئنه ابنها . ثم اقتلته إلى الفراش وأراحته هناك .

كان زوجها تاجراً محترماً عظيم الهيبة فى باتوسان ، وقد انتخبته ستون أسرة (أى نحو ألفى شخص مسلحين بالخناجر) زعمائها وهؤلاء حزب معاد للراجا . الراجا كان يحاول احتكار التجارة وكانت منازعات تقع واطلاق رصاص وقرى تحرق . وكان رجال يؤسرون ويقادون للراجا كي يقتلهم بنفسه لم يكن شئ يفوق توحش وجشع هذا الاحير سوى جبنه وخشيته من اتحاد الرجال ضده .

كان هناك تاجر عربى آخر قوى اسمه (الشريف على) يسيطر على قلعة تطل على البلاد . وكان يحرص الأهالى ضد الراجا ، وقد خطر لكثيرين أن يتحالفوا معه ضد الأخير . لكن (دورامين) منعهم من ذلك ..

هكذا كان الوضع عندما وصل (جيم) وعندما فر من سجن الراجا ..

الفصل الحادى عشر

عندما قابلت (دورامين) أحببته على الفور ، فهو رجل مرموق من المواطنين ، ضخم الجثة بالنسبة للملايو .. لكن هذا لم يجعله دينياً بل جعله أسطورياً . له عنق ثور ووجه مجعد مطمئن . شديد الهدوء أقرب إلى الخمول فلا يحرك طرفاً طيلة جلسته وهذا يجعله رمزاً للكبرياء ، لكن فى صوته الخفيض هيبه ولشخصيته تأثير سحرى . له ابن تجاوز العشرين من العمر ، فهو ليس طفلاً فى بلد يتزوج الجميع فيه فى سن السادسة عشرة . لكن ابنه يحمل له احتراماً شديداً ، وفى كل صباح ينزل إلى حيث يجلس أبوه فيحنى وينثم يده فى إجلال .. وأبوه يمنحه يده كمك . كنت أعرف أن الأبوين يهيمنان بانهما حبا وإن لم يظهرأ قط ما يدل على ذلك ولم أرهما ينظران له قط . كان اسم الفتى كما أخبرنى جيم هو (دين وارينس) وكان يعتبره ثانياً لأفضل صديق له بعدى .

لا أعرف السبب لكن الأبيض التجذب للأسمر بكيمياء غامضة جعلتهما صديقين حميمين . إن (دين وارينس) كان شجاعاً بحق ذا روح صلابة أمينة .

عرفت هذا بينما حيم يشرف على عملية رفع المدافع فوق الجبل مع الرجال . الفرص كان قصف مواقع الشريف على

كانت عملية شاقة لكن الرجال كانوا يثقون به . لقد بدأوا يفترضون قدرات خارقة لديه وهذا أثار ضحكه ودهشته .. قال لي وهو يراقب العمل :

« أنا غرق في العرق والفجر قريب .. أخشى ما أخشاه أن أرتجف من البرد .. »

هكذا (جيم) . لا يخاف مسئوليات العمل ولا نتائجه ، ولكن يخاف أن يرتجف أمام الرجال ..

لقد وثق فيه هؤلاء القوم كثيرا ، وهو لم يخذلهم قط حتى هذه اللحظة ..

جواره كان صنو روحه (دين رايس) يضحك ولا يتكلم . لكن جيم يخشى أن يبادل الضحك فيرتجف .

أمس جاءه أحرق من قرية مجاورة يطلب مشورته في تطبيق زوجته . تزوجها منذ عشرين عاما . زوجة طيبة .. يضربها قليلا . ثم كبرت وشاخت وأقرضت تلك الأنثى النحاسية لابنة أختها . لم تطلب رايه . النتيجة أن الأنثى فقدت للأبد ..

« ليس الأمر مضحكا كما يبدو لك .. »

كان عليه أن يقطع مسافات كبيرة ، ويصلح بين الكثير من الأطراف ويعد للرجل انثى النحاسية حتى لا تحدث حرب أهلية

خادم حيم كان اسمه (تام إيسام) وهو من الملايو . غريب عن البلدة وقد استبقاه الرجا ليحمله بجدف في أحد قواربه . وقد فر عند أول فرصة ليتحقق بخدمة جيم . أسمر له عينان جاحظتان محتقنات بلون اصفر ..

كان معروفا بشراسته في القتال ، وقد أبلى الرجال بلاء حسنا في هذه المعركة وقصفوا عددا من حصون الشريف على من موضعهم المرتفع هذا .. وسمع (دورامين) الأخبار وعرف أن ابنه بخير فحاول النهوض فلم يستطع .

كان جيم في حالة لا توصف من الفرح والانتشاء الكلمات لا تقدر على التعبير عن حالته .

إن شهرته تتعاظم صار رحلا من هؤلاء الرجال الذين لا تستطيع مقارنتهم إلا بمجدهم الخاص . وكان عليك أن تجذب بالقرب مسافة طويلة جدا كي تصل لمكان لم تبلغه شهرته شهرة قوامها السيف الذي يؤكد وجوده في كل يوم

كان جيم يتفاسم شيئاً مع ذلك الصمت الذى يصاحبك نحو أعماق مجهولة . يمتزج مع همسات العجب والغوض على شفاه الرجال ..

لقد فر (الشريف على) المهزوم من البلاد وإن عزم على الانتقام . وعاد القرويون إلى بيوتهم المهتمة . لهذا كان جيم هو الذى أعاد تنظيمهم بمساعدة (نين ريس) وعين كبراء القرى

أما عن شعور الراجا (الأناج) عندما سمع قصص المدفعية . فقد رقد على أرض كوخه البامبو وراح يرتجف ويقول كلمات مختلطة . فلم يجروا أحد على الاقتراب منه أقرب من رمح واحد لمدة يوم ونصف .. كان يرى بوضوح أنه سيطرده من باتوسان .. سيعيش بلا ماله ولا نسائه ولا أفيونه فريسة سهلة لأول من يريد قتله .

فى الحقيقة كان (نورامين) يحتفظ بطموح مجنون أن يرى ولده حاكماً لباتوسان .. كان ببدايته وعينيه الصغيرتين يذكر نوماً بفيل عجوز .. حركة صدره المكتنز أثناء التنفس .. صوته الهادئ الغليظ . كلها تذكرك بميلاد عاصفة رعدية . وكانت ثقة الرجل كبيرة بـ (تون جيم) . لكنه قال لى إن الله خلق الأرض لتبقى للأبد بينما الرجال البيض يأتون ويرحلون . ولن يثبت جيم هذا أن ..

هنا قلت له فى حدة :

« لا .. لا .. لن يرحل .. »

نظرت لى زوجته العجوز التى تشبه الساحرات وسألتنى عن السبب الذى جعل جيم يترك بلاده ويسافر كل هذه المسافات ليعيش هنا أليس له أصدقاء ؟ .. أليست عنده أم عجوز تبكى وتذكر وجهه ؟

هذه أشياء بطول شرحها على كل حال .

وماذاً عن وقوع جيم فى الحب ؟ . أنتم لا تصدقون وتعتقدون أنها مجرد شهوة عابرة أخرى .. لكننى أجدها شيئاً جديراً بالذكر .

لم يكن لدى زوجة (كورنيليوس) من رفيق تسكن له سوى ابنتها .. لا أعرف كيف تزوجت المرأة المسكينة ذلك الوغد اللبرتغالى من ملقة بعد طلاقها من أبى ابنتها . أعرف مما حكاها (شتاين) أنها لم تكن امرأة عادية .. لما ملقت المرأة عاشت الأينة وحيدة .. هنا جاء جيم ..

جيم كان يتدأ الفتاة باسم قريب جداً من (يا غالية) .. (يا جوهرتى) .. وكان ينطقها بتلقائية وبلا افتعال .. لقد قابلتها ..

طيف أبيض ووجه كوجه طفل رقيق . تخرج من غرفة داخلية كأنها طير يغادر عشه ..

وعرفت فيما بعد أن الإشاعات تملأ المنطقة كلها خاصة بين البحارة البيض . عن رجل أبيض جيم جاء إلى باتوسان ووجد جوهرة عظيمة القيمة . وهو يخرج دوماً مع فتاة جميلة يتأبط ذراعها ويقال إنها تخفي هذه الجوهرة في صدرها ..

كل هذا كان خطأ فيما عدا أن جيم وقع في الحب فعلاً .. لم يخف جوهرة بل كان فخوراً بها .. والجوهرة كانت الفتاة

الآن فقط أتذكر أنني لم أرها كثيراً . فقط أذكر بشرتها ذات اللون الزيتوني الشاحب . كانت أحياناً تجلس لتتابع كلامنا بعينها الواسعتين كأنها ترى كل كلمة من كلماتنا . كانت تعرف بعض الإنجليزية من جيم وكانت تنطقها بطريقته الطفولية المسلية . كانت تغطيه برفقها كأنها جناح يرف فوقه ، وتغار عليه لكن من أي شيء ؟ لا أعرف . ربما تغار عليه من الأرض أو الناس ..

أنا رأيت ذلك البرتغالي كورنيليوس الذي كان زوج أمها .. كان قد انتقل ليقيم عند (دورامين) وبالتالي هو تحت نوع من الحماية . كان رجلاً خسيماً . يغضب بخسة .. يتسم بخسة

بحزن بخسة .. أنا متأكد من أن حبه كذلك خسيس .. حتى الشخص الحقير يبدو نبيلاً بجواره ..

كان يعامل الفتاة البريلة بقسوة ويصر على أن تتأديه بابا وباحترام كذلك . لكنه لم يضربها لأنه أجبن من ذلك .

كان قذراً كذوباً وكلما انتقد الناس شيئاً فيه قال إنها غلطة زوجته الميتة .. حتى إن جيم منعه من ذكر زوجته الميتة بأية كلمة .

الفصل الثامن عشر

ازداد تعلق (جيم) بالفتاة بعد ما أنقذت حياته من محاولة اغتيال .. لقد أبقت له ذات ليلة وهي تحمل المشعل ، وأخبرته أن هناك بعض رجال في المخزن .. هكذا هرع إلى هناك وهي تسبقه بمشعلها .. استطاع أن يرى رجلاً من الأهالي يحمل خنجرًا . أرداه صريخاً بطلقة واحدة في رأسه .. هنا خرج أربعة رجال مذعورين يتوسلون له كي يبقى على حياتهم .

اقتادهم تحت تهديد السلاح إلى النهر ، والفتاة تتبعه حاملة المشعل .. وأرغمهم على الوثب في الماء .. وهتف :

« أهلكوا تحياتي للشريف علي »

وهكذا ابتعد الرجال ، أما هو فنظر للفتاة .. شعر أن قلبه يتضخم بحيث بلغ حلقه فلم يعد قادراً على قول شيء .. طوحت بالمشعل في الماء فضمها له وهمس أنه لن يتركها في عهدة كورنيليوس بعد اليوم .. وارتجف .. شعرت به يرتجف ..

كانت فكرة مفارقة هذا المكان والعودة للعالم الخارجي تزداد استحالة يوماً بعد يوم . لعالم الخارجي صار مستحيلاً بالنسبة له ، خلصة أنه لم ينس لماذا جاء هنا ..

فيما بعد قال لي :

« هؤلاء القوم يعتبرونني بطلاً ويقدمونني .. لكن برغم هذا لن تقبل أن أعمل على سفينة تخصصك .. »

« هلا كلفت عن هذا ؟ »

وتركته يقوم بجولته الليلية مع خادمه .. وعدت لمقر إقامتي . هنا فوجئت بالفتاة تقطع على الطريق .. لم أكن أتبين في الظلام سوى أسناتها البيضاء وعينيها الواسعتين .. وكانت تطلب .. بل ترجو .. بل تتوسل .. هي تعرف أن الفتى قادم من أصقاع بعيدة نائية لا تعرف عنها شيئاً ، لكنها تعرف أن هذه الأصقاع تصنرد أبناءها يوماً ، وقد بدا لها أنني جئت من هذه البلاد النائية كي أأخذ جيم معي .. لابد أنها كانت تفقد عقلها رعباً أثناء محادثتي الطويلة الهامسة مع جيم ..

تأثرت جداً من صغر منها من سذاجتها .. من جهلها .. من جمالها القبار الذي يحمل كل محاسن زهرة بريّة . لكنها لا تفهم أن العالم الخارجي لا يعاب بجيم ولا يريده في الواقع بذلت جهداً جهيداً لأقنعها أنني لم أت لأخذ جيم ولكن جئت بداعي الصداقة .. لأعرف أخبره .. ربما لأطمئن على أنه لن يرجع ..

كانت تعرف الأخطار المحدقة به . تعرفها أفضل منه بكثير .

لم تكن تؤمن بقدرته على النصر .. كل الناس هنا كانوا لا يؤمنون بنصر جيم ، وحتى الشريف على نفسه كان يحتقر هذا الأبيض .. سوف يقتال أحدهم جيم يوماً . ولن تكون للموضوع أهمية ..

فى تلك الليل جوار النهر ركعت على ركبتيها أمامه وتوسلت له أن يرحل . لما أبدت دهشتى من هذا الكلام الغريب قالت لى :

« لم أرد أن أموت وأنا أبكى .. »

خيل لى إننى أسأت إليهم فقالت :

« مثل أمى .. أمى بكثرت قبل أن تموت .. »

كانت تكشف لى عن عالم قاس يحاول المرء أن يتوارى عنه . كسلحفاة تلجأ لأمان درفتها .. قالت إنه أقسم لها إنه لن يتركها أبداً مهما حدث . ثم أضافت وهى تشفق

« رجال آخرون وعدوا بذلك .. أبى وعد بذلك ! »

ثم سألتنى :

« هل هو أفضل من الرجال الآخرين ؟ »

« أقسم بشرفى أنه كذلك .. »

« وهل هو أكثر منهم صدقاً ؟ »

« نعم .. ليس هنا أحد يمكن أن يشك فى صدقه .. وهو كذلك أشجع .. لن يجعله الخوف يتغلى عنك أبداً .. »

قالت فى رعب وثوبها الأبيض يتألق فى الظلام ، بينما أغنية قذونسية ما تلتى من الأكواخ :

« ما هذا الذى يفزعه ؟ من يطارده ويجعله يصرخ أثناء نومه ؟ . هل هذا العدو المخيف حى أم ميت ؟ »

قلت لها :

« اسمعى .. أنت تريه الأشجع والأذى والأقوى فلماذا لا تفترضين كذلك أنه الأكثر صدقاً ؟ .. صدقنى هذا العالم الخارجى كبير جداً ولا يذكر من هو جيم ولا يريده أصلاً .. لن يفتقده أحد هناك .. أنا سأرحل غداً ولن ترى وجهى أبداً .. »

كان منطقى هذا مقتعاً لكنه بدا لى غريباً ومن الصعب أن أقوله عن أى شخص ..

عادت تسألنى فى إلحاح وهى تمسك ذراعى بأقوى ما تستطيع :

- « قل لي لماذا لن يفتقده أحد ؟ »

هنا انفجرت فيها :

- « تريدان معرفة السبب ؟ لأنه ليس جيدًا بما يكفي .

لا يوجد أحد جيد بما يكفي ! »

وتوقفت عن الكلام لأنني سمعت صوت خطوات (جيم) ..

الفصل الثالث عشر

في الصباح التالي ومع أول اتحشاء من النهر ، ثلاثى عن ناظرى كل هذا . بلونه ومفراه .. كأنه صورة على لوحة قماشية . بعد تأمل طويل تدبر لها ظهره لآخر مرة ، لكنها تبقى في ذاكرتك لا تبهت وإن كانت بلا حياة . تجمت عواطف الخوف والأمل كما هي في ذاكرتى .

كنت عقدًا بعيدًا عن الصورة إلى عالم تجرى فيه الأحداث ويتغير الناس وتلتصع الأضواء . الحياة تتدفق كتيار مائى لا يهم أن كان يجرى فوق صخور أم فوق أوحال . لكن ما تركته خلفى لن يتغير ..

(نورامين) المجيد حيث هو وزوجته التى تشبه الساحرات بظموحهما الأبوى . وتتكو (ألانج) و (دارين وارين) ، والفئة العاشقة الخائفة ... أثق بوجود هؤلاء لأنهم تحت عصا الساحر . لكنهم يلتفون حول شخص واحد لا أثق أن يظل حيث هو . لا أثق في عصا ساحر تبقى في مكانه .. لقد كان واحدًا منا ..

لقد رافقتى جيم في الجزء الأول من رحلتى ، وكانت فكرة الفراق تخيم علينا فعلاً .. لهذا لثنا بالصمت أكثر الوقت ..

بالفعل كنت أشعر بذلك الذى تكلمت عنه الفتاة إن الوطن ينادينى . نظرت لذلك التعس الجالس جوارى وقد سقط راسه على صدره وتذكرت أنه لن يعود أبداً ..

عند الشط ذى الرمال البيضاء استوقفنا ذلك العجوز وولده .. راح يشير نحو (جيم) ويتكلم بلا انقطاع إن الراجا لن يترك الفلاحين وشأنهم . هناك مشكلة حول مجموعة كبيرة من بيض السلاحف قام الوطنيون بجمعها والراجا يعتبرها ملكا له . طلب منهما جيم الانتظار فسوف يصفى لهما حالا . فابتعد الرجلان فى طاعة وجلسا القرقصاء وقد وضع كل منهما المجداف على الرمل أمامه . التفت لى (جيم) وقال :

- « المشكلة أن كل هؤلاء الصيادين يعتبرون عبيد الراجا »

- « وأنت غيرت هذا »

- « نعم . وقد أعاد لى هذا الكثير من ثقتى بنفسى .. لكن يجب ألا أنسى أنه لا مكان لى هناك .. »

ونظر إلى الرجلين وهمس :

- « لا أستطيع تخيل ما قد يحدث لو تركت هذا كله وعدت . الجحيم ! لابد أن أبقي وأن أذهب غداً للقاء ذلك الراجا وأجازف بشرب قهوته التى قد تكون مسمومة . سأكلمه عن موضوع بيض السلاحف هذا لكن متى أراك ثانية ؟ »

قلت من دون أن أنظر فى عينيه :

- « لن نلتقى أبداً ما لم ترحل عن هنا بالطبع .. »

قال بعد صمت :

- « إذن هو الوداع ربما كان هذا أفضل . »

واستدرت لأركب القارب الذى ينتظرنى . فلحق بى حتى بلغت للمياه ساقبه وصاح :

- « قل لهم فى الوطن .. »

أصخت السمع أقول لمن ؟ .. كانت عيناه تواجهان قرص الشمس بالضبط وهو يقول :

- « لا .. لا شئ .. »

وابتعد القارب نحو السفينة الكبيرة التي كانت ستحملنى .
وقد غربت الشمس . صار الأفق القريب شريطاً من الذهب
وسط الظلام فلم يعد من جيم سوى شبح على الشط .

لقد نهض الصيادان بمجرد رحيلى ، وراحا يمكنان تعاستهما
على مسمع السيد الأبيض . بسبب مواد بشرتهما كانا أول من
اختفى فى الظلام قبل سيدهما ، الذى كان أبيض من قمة رأسه
حتى أخمص قدميه . لهذا بدا كأنه يمتص كل الضياء الباقى فى
العالم ..

وسرعان ما غاب عن عيني ..

الفصل الرابع عشر

عند هذا الحد أنهى (مارلو) قصته غير المكتملة . وراح
الجالسون يحدقون فى الفراغ شاردين يسترجعون ما قال ..

كان هناك واحد بين الموجودين عرف الكلمة الأخيرة فى
القصة بعد عامين . وقد وصلته على شكل طرد عليه كتابة بخط
مارلو نفسه . فتح الطرد ورأى ما فيه ثم اتجه إلى النافذة ..
راح يراقب الطرقات التى يقرها المطر ثم جذب الستار ليقلقه ..
هناك يستقر هذا الطرد تحت المصباح الخافت . والساعة تردد
بلا تقطاع : لا مزيد .. لا مزيد ..

تتهد وهو يستعيد ذكريات الأحراش والمستنقعات والأنواح
البعيدة .. ثم جلس ليقرأ ..

- « لا أحسبك نسيت .. فأنت بالذات أبدت اهتماماً تجاوز قصص
تلك القصة . لكنك لم تعتبر جيم قد سيطر على مصيره بعد ..
توقعت له الإبهك ولزهد فى الإعجاب الذى يتلقاه من الشباب . قلت
بك تفهم هذه الأمور جيداً .. يجب أن تؤمن بجدوى ما نلحقه حتى
نتحمل أن نضحى من أجل الآخرين ، وإلا فالنضحية مجرد نسيان .

ولصار المنح مجرد وسيلة للهلاك . لا أجزم بشيء .. هناك الكثير من الصدق فى عبارة (تحت سحابة) .. (جيم) كان تحت سحابة .. من الصعب أن تراه بوضوح خاصة لو كانت نظرتنا الأخيرة له عبر عيون آخرين ..

« اعتقد أنه كان فى طريقه نحو الاختبار الأكبر الذى اعتقد أنه كان ينتظره .. تذكر أننا فى وداعنا الأخير طلب منى : قل لهم .. ثم توقف .. وفجأة قال : لا شيء ..

« كان يحاول أن يكتب هل رأيت الورقة التى كتب عليها : (الحصن - باتوسان) ؟ اعتقد أنه جعل بيته فلكته الأخيرة خندق وجدار من التراب عليه سياج وبنادق على منصات تسمح المنطقة كلها . نورامين هو الذى جنب له تلك البنادق كان يعتمد على من أسماهم (قومي) .. إنهم أسرى (الشريف على) الذين حررهم ، وقد أقاموا قرى وتجمعات تحت الحصن . فى هذه الورقة كتب : لا بد أن .. ثم سقطت الريشة منه وتناثر الحبر .

« سوف تجد ضمن الأوراق خطاباً عتيقاً جداً كتبه أبوه .. لا بد أنه تلقاه قبل أن يلتحق بالبلاتنا بأيام معدودات .. لا بد أنه آخر خطاب من أسرته .. العجوز كان يهيم حباً بانه كما هو واضح . أربع صفحات من الحب الأبوى الخالص .. يمكنك أن تتخيل

العجوز فى مكتبه الذى قضى فيه أربعين عاماً يكتب المواعظ ويحلم بالطريقة الأفضل للموت .. هناك إيمان واحد .. هناك فضيلة واحدة .. هناك ميتة واحدة ..

« الأم والأخوة بخير .. لا تغلق ..

« من جديد أستعيد منظر جيم حيث وقف .. هو الشيء الوحيد الأبيض على الشط .. تحت سحابة ..

« فى الصفحات التالية سوف تجد باقى القصة وعليك أن تعترف بأنها رومانسية بما يفوق أحلامك . شيء من هذا القبيل كان محتتم الحدوث ..

« برغم هذا هناك الكثير من المنطق فيه ..

« يبدأ كل شيء بملحمة قام بها رجل وغد يدعى (براون) .. سطا بنجاح على سفينة شرعية إسبانية فى ساحل صغير قرب (زامبوانجا) . قابلت هذا الرجل وعرفت بين أنفاسه المتقطعة بفعل الربو آخر أخبار جيم .. كان على أن أتحمل عينيه الذابتين الشبيهتين بقدم الغراب كى أعرف ..

قال براون المختصر :

- « ما إن رأيتَه حتَّى أنركت أى أحمق هو .. رجل ؟ هو ؟ »
 لقد تحدانى لكن لم يكن فى داخله ما يكفى من الشياطين ليقتضى
 على .. سوف يقتلى الربو بكى ساموت راصيا فقد هزمته «
 « كنت قد وجدت هذا الرجل فى باتجوك دلتى عليه رجل
 أبيض يدعى (شومبرج) اراد بعض الشرف بأن يستصيف عنده
 (براون) الشهير فى آخر أيامه .

« كان يتكلم كالمحموم ومن حين لآخر ينظر لى بحزن
 وغضب . كته يخشى أن أمل وتصرف قبل أن يحكى لى القصة
 مات لينتها لكن لم يكن عنده وقتها ما يحكيه ..
 « قبل هذا بفترة كنت أُرور (شتاين) عندما قابلت عنده أحد
 أهالى الملايو . كان هذا (تام ايتام) خادم (جيم) المخلص
 فسألته فى حماسة :

- « هل (توان جيم) هنا ؟ »

قال :

- « لا .. »

وتدلى رأسه للحظات ثم قال بجنية :

- « هو لن يقتل .. لن يقتل .. »

(*) لا يوجد قطع هـ هى فترة من فترات كونرد المصنعة التى يستكملها جيم بعد

لم يبد أنه قادر على قول شيء آخر فدفعته و دخلت ..
 وقف (شتاين) فى وسط الغرفة طويلاً محنى القامة . فقال
 لما رأى :

- « آخ .. هلأتذا يا صاحبنى .. تعال .. »

قلت :

- « لماذا يقف (تام ايتام) بالخارج ؟ .. »

- « تعال لترى الفتاة .. إنها هنا .. جاءا منذ يومين .. أنا
 عجوز ولا أقدر على عمل الكثير .. القلوب للصغيرة لا تتسامح
 إن فيها قوة هائلة .. »

ومشيت خلفه فى البيت ، وهو يقول :

- « لقد أحبها كثيراً .. »

هزرت رأسى موافقاً وشعرت بمرارة لأننى لا أملك ثقة بنفسى
 تكفى للكلام .

- « خافعة جداً ولا تثق بى .. أنا بالنسبة لها مجرد عجوز
 غريب . على الأقل هى تعرفك قل لها أن تسامحه .. »

« بالتأكيد .. »

قلت لها وأنا أشعر أنني في الظلام تماما ولا أفهم أى شيء .
فتحت الباب ودفعني للدخل ..

أنت تعرف أن بيت شتاين كبير مريح رطيب . رأيت فى غرفة
منه الفتاة جالسة على منضدة من الماهوجنى وقد أراحت رأسها
بين يديها . انعكست صورتها على الأرض المطلية بالشمع كأنها
على صفحة بحيرة . رأيتى فرفعت رأسها ..

قالت لى :

« لقد تخلى عنى .. كلكم تفارقوننا من أجل أغراضكم .. »

بدا كأن كل النوح فى وجهها توارى فى موضع سحق من
صدرها ..

« كان من السهل أن اموت معه .. كنت أنا من وقف أمامه
وأنا من نظرت له .. أنتم خونة قساة بلا عاطفة . ما الذى يجعلكم
بهذه القسوة أم أنكم جميعا مجانين ؟ »

تناولت يدها فلم تقاوم ، ولما تركتها سقطت .. هذا مرعب
أكثر من أية دموع ..

سمعت كل شيء .. وشعرت بشفقة عظيمة عليها .. وعليه
كذلك ..

« كنت جواره أمسك بيده ، لكنه لم يرنى . أصابته لعنة
القسوة التى تصيبكم جميعا فلم يعد يبالي بأمرى .. تركنى كأننى
لسوا من الموت .. كأنه يفر .. »
اتحنيت وتركتها هاربا ..

خرجت إلى حديقة (شتاين) التى جعلها متحفا لكل أنواع
نباتات المناطق الحارة . مشيت هناك بعض الوقت عاجزا عن
التفكير ، وهناك بين الأشجار رأيت شتاين نفسه بين الأغصان
مع الفتاة يضع يده على كتفها فى رفق أبوى ، ويردد :

« هذا فظيع .. ماذا يوسعنا أن نفعل ؟ »

قالت الفتاة :

« ما الذى فعلته أنا ؟ .. لقد كان مثل الآخرين .. »

صاح شتاين وهو يضرب على يدها :

« لا يا صغيرة .. لا .. لا .. يوما ما ستفهمين .. »

كان ثوبها الأبيض يزحف من خلفها وشعرها الأسود حر على ظهرها ، وهى تمشى فى خفة جوار الرجل السماء رمادية تماماً وهو مشهد غير معتاد فى المناطق الحارة .

لشد ما تغيرت الفتاة بعد الكارثة ولشد ما تغير (تام إيتام) .
لقد صار أقرب إلى الثورثة .. »

هنا انتهى جزء الخطاب الذى تمت كتابته بقلم (مارلو)

الفصل الخامس عشر

توقف الرجل الذى أسعده الحظ بمعرفة باقى القصة عن القراءة ، واقترب من النافذة ليلقى نظرة عابرة على المدينة ، كأنه حارس فنار يطل على البحر ، ثم عاد يتصفح الأوراق :

« كما قلت لك ، فكل شيء يبدأ بالرجل المدعو براون .. الكل يعرفه على سواحل أستراليا . ما يحكى عنه كان كافياً جداً للشئق لو أنك حكيت فى المكان الصحيح . المؤكد أنه طرد من سفينة كانت تنقب عن الذهب ومنذ ذلك الحين صار الرعب الدائم فى بعض جزر بولينيزيا . كان يسطو على السفن ويقطع الطريق وكان يسلب الأبرياء ماله ثم يدعوهم لمبارزة بالمسدسات على الساحل ، وهى مبارزة معروفة النتيجة . كان يحتقر ضحاياه بشدة .. يحتقر الجنس البشرى كله .

خرج من حياته هذه بكيس مليء بعملات فضية أخفاها على حد قوله حيث لا يستطيع الشيطان أن يشمها . وقد فر من محاولة للقبض عليه بسفينة إسبانية .. الحقيقة أن الرجل لم يكن يخاف الشئق ، لكنه كان يخشى المسجن بجنون كما يفعل

شخص بدلتى بخشى الأتباع . لهذا فر مع طاقم من اثنى عشر مغامرًا ..

أعتقد أنه سمع عن باتوسان أو رأى اسمها بحروف صغيرة على خارطة ما .. غالبًا قرر أنها بلا حماية وبعيدة عن السفن الحكومية والبرقيات ..

كان الأمر مسألة حياة أو موت . الحرية !.. فى باتوسان سوف يجد أرزًا وبطاطس ولحمًا . ومن يدري ؟.. ربما بعض المال كذلك !. ربما أمكن السطو على بعض القرى ..

كان حظه حسنًا والطقس موافقًا .. لهذا خلال أسبوع كان قد رسا بسفنه عند (باتو كريج) على مرمى حجر من قرية الصيادين ..

هبط 14 رجلًا فى قارب كبير من السفينة الشراعية قاصدين النهر . وبقي اثنان معهما ما يكفى من طعام لمدة عشرة أيام . أربعة عشر رجلًا يبدون كخيالات المقاتلة وهم يلوحون بينادقهم .

صمت عميق .. مساحة المكان أثارت دهشة (براون) .. وخطر له أن ينزلوا فى مركز البلدة قبل أن يحاول السكان

المقاومة . لكن من الجلى أن زعيم القرية نجح فى إرسال إشارة استغاثة ..

حينما بلغوا المسجد الذى بناه دورامين كانت الساحة أمامه مليئة بالرجال .. دوت صرخة ثم دق (الجونج) عبر النهر كله ومن فوق هوت قذيفتان فى الماء لينتثر الرذاذ فى ضوء الشمس .

واتهال وإيل من الطلقات من زحام الواقفين أمام المسجد . ومن الضفتين .. رد رجال (براون) بالنيران ..

وتوارى القارب تقريبًا وسط الدخان ، وبدأ ينور حول نفسه .. صرخات الغضب .. ودقات الجونج .. وأصوات الطلقات .. بينما جلس براون فى القارب مليئًا بالغضب والغيظ من هؤلاء القوم الذين تجاسروا على الدفاع عن أنفسهم ..

وأدرك أن قاربين يقطعان عليه خط التراجع . بل ستة قوارب مليئة بالناس ..

هنا رأى مدخل النهر (الذى وثب فوقه جيم أثناء الهرب) فدخل بقاربه فيه ، وترجل الرجال .. وسرعان ما اتخذوا مكانهم على هضبة صغيرة قرب للسياح . كانت هناك أشجار على قمة

الهبشة فقطعوها بينما ظلت قوارب الراجا فى النهر فى حياية غريبة ..

عندما غربت الشمس أمر براون رجاله بأن يحرقوا العشب حول موقعهم . فتصاعدت المسة الذهب وزحفت حتى توقفت قرب سباح قصر اراجا . كانت السماء مزدانة بالنجوم بينما العشب المحترق يقطع وهبت رياح أطارت كل شيء

توقع براون هجمة أخرى بمجرد أن يرتفع المد . لكن لم يحدث شيء وظل يرى الأضواء من قوارب الراجا فى النهر .

رقد الرجال على بطونهم خلف جذوع الأشجار التى قطعوها وراحوا يرمقون البلدة ، التى لم يتصوروا أنها بهذه الضخامة وقد امتلأت بالرجال الغاضبين ولاذوا بالصمت . لم يكن هناك صوت سوى طاقة من حين لآخر .. لكن هذه الضوضاء لم تمسهم هم كأنهم ماتوا فعلاً ..

الفصل السادس عشر

لم يكن جيم موجوداً وقتها ، بل كان فى داخل البلاد يدبر مسألة ما . لذا وقعت مهمة الدفاع ضد الرجال على (داين وريس) هذا الشاب الشجاع البارح ابن دورامين

كان يتعمى تسوية الأمور بنفسه ، لكن قومه كانوا أكبر من قدراته .. لم يكن يملك نفوذ ومهابة جيم باعتباره رجلاً أبيض خارقاً للطبيعة لا يقهر ولم يكن تجسيدا للنصر مثله .

كانوا يحبونه ويحترمونه لكنه ظل واحداً منهم بينما جيم كان واحداً منا ..

كان رجال البلدة يؤمنون أن الرجل الأبيض لا يموت ..

بن طلفات عصابة (براون) كانت دقيقة أو محظوظة ، إلى درجة أنها أصابت نصف دسنة من الرجال .. وقد تم إرسال النسوة والأطفال إلى الحصن ، هناك كانت (الجوهرة) هى القائد ببراعة وحسم ، وكان رجال جيم يطيعونها .. حتى النهاية كانت تؤدى واجبها بروح شبه عسكرية .

ما إن ظهر الخطر حتى هرع (واريس) لها لأن جيم كان الوحيد الذى يملك مخزونا من البارود ، وقد جلبه له (شتاين)

بإذن خاص من الحكومة الهولندية . عقدوا اجتماعاً في مقر جيم في الحادية عشرة مساءً ، وباعتبار الخطر عامًا جاء ممثل عن الراجا هو (قاسم) ..

كثرت الإشاعات ومن بينها اشاعة عن سفينة كبيرة سوف تأتي في أثر هؤلاء ، عليها بحارة بيض قساة مسلحون . وسوف تقصف المدينة بالمدافع وتستولى عليها .

جاء (دورامين) طبيعًا بصعوبة شديدة ومعه آخرون وكان رأى من يدعى (حاج سونار) كما يلي :

- « هؤلاء الرجال الأوغاد أمرهم منتهى . سوف يبقون حيث هم ويموتون جوعًا ، أو سيحاولون الفرار الى قاربهم وهكذا يتعرضون لخصاصنا . في كل الأحوال لا داعي للاستيكاك معهم في معركة .. »

رأى (دورامين) أن على ابنه أن يأخذ مجموعة من الرجال إلى جنوب باتوسان لمراقبة النهر وسده بالقوارب .. تحسب لقدام رجال بيض آخرين .. لا أعتقد أن (دورامين) كان يتوقع قدوم آخرين ، لكنه أراد أن يبعد ابنه عن موقع الخطر

اتفقوا كذلك على ترك قارب القراصنة سليمًا لعل هذا يفريهم بمغادرة مكنهم من ثم يصيرون فريسة سهلة للسيران .. واتطلق عدد كبير من الرسل بحثًا عن (جيم) الذي لا يعرف أحد أين هو ..

اتطلق مندوب الراجا مع البرتفالى الوغد (كورنيليوس) لإجراء مفاوضات مع (براون) ..

سمع براون من يناديه بالإنجليزية قائلًا إنه يحمل رسالة مهمة لكنه يطلب ضمان سلامته . سره هذا كثيرًا لأنه أشعره بأنه ليس مجرد وحش محاصر ينتظر الموت .. هناك تفاوض وحوار ..

وصمغ من يقول :

- « أنا رجل أبيض مسكين أريد الكلام معكم .. »

واقترع كورنيليوس بثيابه المعتادة : القميص الممزق والسروال المتسخ .. حافى القدمين يضع قبعة من قش على رأسه . فقال له براون :

- « اقترع .. أنت في أمان . لكن تعال وحدك .. »

وهكذا راح كورنيليوس يتكلم .. بعد نصف ساعة فهم (براون)
كل شيء عن باتوسان طلب بعض الطعام أولاً كدليل على
النوايا الحسنة ..

هكذا عاد كورنيليوس . وبعد قليل جاء بعض خدم الراجا
يحملون الأرز والسمك المجفف .. جاء (قاسم) مندوب الراجا
بعد قليل بشوشاً وقد التفت بملاءة زرقاء وانتعل صندلاً . وبدأ
التفاوض مع براون .

كان قد أدرك على الفور أن هؤلاء الرجال منبئون بلا وطن .
وبدأ يطرح فكرة على المعتدين هي أن يسيطروا على البلد قبل
أن يعود جيم .

كان براون يصغى في اهتمام .. لقد جاء هنا كي يسرق بعض
الطعام وربما بضعة أطنان من المطاط أو الصمغ .. الآن بعد هذه
المحادثات يفكر جدياً في سرقة البلد بأكمله .

عندما جاءت الظهيرة جاء المزيد من الطعام وبعض الأغذية
وحشايا النوم .. هكذا تمكن الرجال من النوم تحت الظل .. وراح
براون يتساءل :

- « اسمه (جيم) ؟ .. (جيم) ؟ .. هذا ليس كافياً ليكون اسماً ..
هل هو بريطاني ؟ . أى نوع من الناس هو ؟ »
قال له كورنيليوس :

- « هو بريطاني .. يسمونه (توان جيم) أى ما معناه (لورد
جيم) .. هو أحمق وسوف تقتلونه بسهولة »

لكن براون قدر أن اللغتي نكسي وبارع .. ما دام استطاع
السيطرة على الأهالي بهذه السهولة . كان يحلم بأن يسوى
حسابه مع هذه البلدة التي تحدثه . يرى الجثث في الطرقات
والنيران في كل مكان ..

إن التحالف مع (قاسم) قد يكون مفيداً ، لكن من الأرجح أنه
سينهيه بطلقة في رأسه عندما تستقر الأمور .

عبر الشارع مشى رجل وحيد جوار السياج بحسب نفسه
أمناً ، رآه (براون) فأشار لصاحبه وهو جندي هارب من
الجيش الأمريكي وأشار للرجل .. لبستم الليانكي وقد فهم
المطلوب منه .. ركع على ركبة واحدة وأحكم التصويب وأطلق
بنديته العتيقة . سمع الرجل صوت الطلقة وبدأ متردداً
للحظة ثم سقط على يديه وركبتيه . حاول أن يحرك أطرافه ثم
هدم تملأاً .

قال الياكى :

- « صحة هذا الرجل لن تضايقه أو تضايق رفاقه بعد اليوم »

قال براون :

- « هذا يريهم ما بوسعنا أن نفعل نزرع خوف الموت المفاجئ فيهم .. »

كانت نسبة الأهالى لهم مائتين لواحد . هذا القتل يعطى الأهالى ما يفكرون فيه الليلة . لابد من زرع الرعب فى نفوسهم الرعب .. الرعب ..

هكذا التصرف (قاسم) راضيا عما تم . وقرر أن يكلم (وارس) عن سفينة عملاقة مسلحة بالمدافع قادمة لتتخذ هؤلاء القراصنة .

إن مصنع الطمأنينة الذى أنشاه جيم . المصنع الذى يضمن للناس شيخوخة هادئة وثقة بالغد .. هذا المصنع بدا موشكاً على التهاوى الليلة وذهب بعض كبار السن ليظهروا إخلاصهم للرجاء فعاملهم الحراس بغلظة . والرجاء نفسه كان مذعوراً لا يعرف ما يفعله فاكثفى بطردهم لأن أيديهم خالية .

جاء الليل وفى الظلام توارى جسد الرجل القليل الذى تركوه على الأرض بذراعين ممدودتين كأنه مصلوب .

ظل براون ساهراً وقد بدأت ثقته الأبدية بنفسه تهتز .. فجأة شعر بأنه يضرب رأسه فى جدار صخري لو أراد الهرب للقارب فلسوف يكون عليه أن يجتاز النهر بما فى ذلك من خطر ، ثم المحيط حيث الموت جوعاً .

لو ركضوا للشوارع فلسوف يقتلونهم بالرصاص كالكلاب . هنا تذكر موضوع التبغ .. هناك تبغ فى القارب الذى تركوه . طلب من أحد رجاله وهو بحار من جزر (سليمان) أن يتسلل إلى هناك ليحضّر له بعضه .. اتطلق البحار وسط الصمت وغاب بعض دقائق .

فجأة نوى صوت الطلقات وسقط الرجل أرضاً وهو يصرخ :

- « لقد أصابونى ! »

واتطلق وابل من الرصاص .. ووسط الطلقات سمعوا من يتكلم فطلب من البرتغالى أن يترجم . قال كورنيليوس :

- « يقولون : بين الرجل الأبيض ورجال باتومسان لا عهد ولا ثقة .. »

- « النعنة ! »

وجلس الرجال مطرقى السمع حول النيران يصغون إلى صراخ وأنين زميلهم . كان رجلاً قوياً لذا مات بكثير من الصخب . أحياناً كان يصرخ وأحياناً يائخ في شكوى طويلة أليمة ملولة بالهلاوس .. لم يكف لحظة ..

قال (براون) :

- « ما الجدوى ؟ »

وهو يرى زميله اليائس يتأهب للنزول إلى موضع القارب . هنا دوى صوت الجريح بصوت عفيف :

- « ماء ! »

قال اليائس :

- « نعم ماء .. الماء ميقوم بالمهمة .. إن المد يرتفع .. »

فى النهاية جاء المد .. وأسكت صرخات الأم ..

وجاء الفجر ..

الفصل السابع عشر

كان (براون) يجلس مطرقاً عندما سمع صخباً من ناحية البلدة .. نظر إلى كورنيليوس متسائلاً فقال هذا الأخير :

- « لقد عاد ! »

- « بهذه السرعة ؟ .. ولم للصخب ؟ »

- « إنهم مسرورون بعولته . هو رجل عظيم لكنه طفل وسوف يموت .. »

- « وكيف نصل له ؟ »

- « هو سيأتى ليتكلم معكم . إنه أحمق وسوف ترون . هو لا يخاف من أى شىء وسوف يأتى ويطلب منكم الرحيل »

للأسف كان يعرف جيم جيداً فعلاً !

- « يمكنك يا كلب أن تأمر هذا الرجل طويل القامة أن يقتله وسوف يخاف الجميع بحيث يمكنكم عمل أى شىء بعد هذا تلرون لو أرىتم »

كاد يركض من نفاذ الصبر واللهفة . ونظر له براون ونظر لرجاله الذين غرقوا فى قطرات الندى والبرد

مع الفجر رأى (براون) رجلاً أوروبياً يضع خوذته ويلبس ثياباً بيضاء .. فصرخ كورنيليوس :

- « هذا هو جيم .. أنظر ..! أنظر ! »

نظر براون .. ومن حوله احتشد الرجال بعيون زجاجية ماذا يفعل ؟ . نظر حوله فرأى الغابات تنذر بمنافسة غير متكافئة ..

كان هناك حشد من الأهالي يمشى حول الرجل الأبيض . ثم تحرر الأبيض ومشى وحده . فتقدم براون وفتح ذراعيه ولوح بهما وانتظر حتى عبر جيم منطقة الشجيرات الشوكية . ثم هبط ليقابله عند النهر .

التقيا في النقطة التي شهدت هروب جيم قديماً . التقى الرجلان وبعيون ثابتة حاول كل منهما أن يفهم الآخر . من اللحظة الأولى كره براون جيم . ليس هذا هو الرجل الذي يطمئنه أن يلقاه .

وفي سره لعن شباب الفتى وثقلته بنفسه .. هذا الفتى يملك كل عناصر القوة في صمقه ولن يتخلى عن شيء .. ليس جثعاً . ليس يائساً .. ليس خائفاً ..

قال براون :

- « اسمي براون .. وما اسمك أنت ؟ »

واصل جيم الكلام كأنه لم يسمع :

- « ماذا جاء بكم هنا ؟ »

- « هذا سهل !.. الجوع .. وأنت ؟ »

قال براون فيما بعد :

« احمر وجهه ولم يرد .. كأنه أعظم من أن يتكلم . لكنى لم أخشيه .. كان واحد من رفاقي يصوب بندقيته نحوه بالفعل وينتظر إشارة منى . لا شيء يصدك في هذا ..

« قلت له :

- « نحن ميثان .. لننتقى على هذا ونتكلم .. ربما أنا فأر في مصيدة لكن بوسع الفأر الحبب أن يعضك عضمة مروعة .. »

- « ليس لو اهتربت من المصيدة بعد موت الفأر .. »

قلت له إن هذه الألعاب تروق للأهالي لكن ليس معنى .. أنا أكثر بياضاً من أن أكون فأراً .. جئت لأتكلّم معه لا لأتوسل من أجل حياتي .

- « ربما لا فرصة أمامنا لكن بوسعنا أن نمتنعكم ببعض الألعاب الرياضية قبل أن نموت . يمكن أن نرسل نصف مدينتكم هذه للسماء وسط الثيران »

حكى لى براون هذا وهو فى فراش الموت ، فبدا لى مخيفاً .

- « لن تجوب الغابات ونسقط واحداً تلو الآخر فيلتهم النمل جثثنا .. »

قال له جيم :

- « أنتم لا تستحقون مصيراً أفضل .. »

- « وماذا تعرف عما لتقرر ؟ نحن جننا هنا من أجل الطعام

نحن جوعى أنا عشت وأنت عشت . لكنك تتكلم كهؤلاء الناس الذين كان يجب أن يرزقوا بأجنحة حتى لا تلمس أقدامهم الأرض .. أنا لا املك أجنحة بل قدامى على الأرض القذرة . وأنا هنا لأكنى أخاف للمجن .. »

كان براون يحكى لى هذا كله على فراش الموت وقد بدا عليه النصر . لقد عاش وهزم الجميع .. رجال الشرطة . الرجال .. النساء . البحارة .. هزم الحياة وبصق عليها ولم يعد يئلى بشئ ..

قال لجيم إنهم قتلوا رجلاً لكن رجلهم مات كذلك . هم قتلوا الرجل بطلقة نظيفة فى الصدر ، بينما رجلهم ظل يتألم ويتلوى ست ساعات فى النهر حتى أغرقه المد . لقد كان لأمر حياة مقابل حياة ..

رجلان يقفان والنهر بينهما وجثة رجل ثالث غمرها الوحل تقريباً .

قال جيم :

- « هل تعدون بمقدرة الشط وتسليم سلاحكم ؟ »

جلس براون وحملق فيه .. وقال :

- « نسلم سلاحنا ؟ .. ليس قبل أن تأخذوها أنتم من أيدينا المتخفية .. هل تحسبني جننت ؟ نحن سنبيع هذه الأشياء فى مدغشقر لو وصلنا هناك »

قال جيم وهو يبتعد :

- « نيكى . ستألون خروجاً امناً او معركة نظيفة »

نهض براون وعاد إلى القل فقابل كورنيليوس .. سألته الأخير :

- « لماذا لم تقتله ؟ »

قال براون بلسماً :

- « لأن بوسعى عمل ما هو أفضل .. »

هرول كورنيليوس مبتعداً وهو لا يجرو على النظر للخلف
حيث أصدقائه الجدد ...

الفصل الثامن عشر

من هنا تحركت الأحداث بسرعة .. قوة سوداء خرجت من
قلوب الرجال وكان جيم بينهم . (تام إيتام) كان بينهم وقد حكى
لى القصة .. لم يحو قلبه إلا الإخلاص والولاء لسيده .. مهما
ساد ضباب الحيرة فقد ظل يحمل لسيده الرعاية والطاعة .

عاد جيم إلى الكوخ الذى كان فيه (دورامين) وظل هناك فترة
مع الرجل بعد محاورة قصيرة انطلق إلى الحصن ليقابل رؤساء
باتوسان ، وتمنى (إيتام) أن يكون هناك بعض القتال .. لكن
معظم سكان البلدة تمنوا أن يرحل الغرباء بلا قتال .

كان المكان يغص باللاجئين ، حيث راحت (جوهرة) تقدم لهم
الطعام وارتفعت أبخرة طهى الأرز .. الكل كان يتساعل عما
ينتويه الرجال البيض .

سادت المكان بهجة عندما عرفوا أن جيم هنا .. وقد ظل
مجتبئاً حتى منتصف الليل ..

قال جيم كما حكى (إيتام) فيما بعد إن هؤلاء الرجال ينتظرون
رده هم فى حالة مثيرة للشفقة أفقدتهم القدرة على التمييز بين
الصواب والخطأ .. قال للمجتمعين إن خسارتهم هى خسارته

ونواحبهم نواحه . لقد عرفوا شجعتهم في القتال . ولستأوت
جربوه وعاشوا معا .

الرجال البيض أشرار لكن مصيرهم سيكون قسياً كذلك لذا
هو يرى أن يسمحوا لهؤلاء البيض سرحين

- « أنا من جربتونه وعرفتم صدقه . يسألكم أن تتركوهم
يرحلون .. »

ونظر لدورامين وقال :

- « فلتناد ابنك (دين وارين) يا صاحبي فلنا لست القائد
في هذه العملية .. »

شعر إيتام بصدمة عندما سمع هذا سوف يتركوا الرجال
يرحلون !

كان جيم كما وصفه (متاين) بالضبط . كان رومانسيا .
وقد صنفه الرجال وقالوا إنه ما دام توان جيم يريد هد فسوف
نصعد به .

لم يشك جيم قط في نوايا براون . لكنه خشي أن يحدث سوء
فهم ما فتحدث منبهة وقال للفتاة وهي تحضر له الطعام .

- « لو حدث خطأ فلن أغفر لنفسي .. أنا مسئول عن كل روح
في هذا البلد .. »

ثم قال لها :

- « سوف تكونين مسئولة عن الحصن ليلة أخرى يا فتاتي
للعجوز .. »

كان يؤمن أنها اشجع رجل في المكان كله !.. ولقد سألته .

- « هل هم أشرار لهذه الدرجة ؟ »

قال لها :

- « أحياناً يتصرف الرجال بشر حقيقي برغم أنهم ليسوا أكثر
مؤثراً من الآخرين »

مضى جيم في البلدة المظلمة ما عدا بعض المشاعل التي
تتعمس على صفحة مياه النهر . ليلة تشبه ليالى رمضان كما قال
(تام إيتام) . كان الراجا قد فر مع حريمه إلى بيت صغير خارج
البلدة . ترك قاسم وحده في القصر فلبغه جيم أنه بحاجة لوضع
بعض رجاله خلف السياج الليلية ، لكن (قاسم) ثار لأنه يرى
ضرورة احترام أملاك الراجا في غيابه .

برغم كل شيء تقدم عشرة من رجال جيم ليعبروا السياج الذى تشرف على فم النهر وقرر جيم أن يبقوا هناك حتى يمر براون من تحتهم طلب جيم من (تام ايتام) أن ينام . فرقد هذا على الأرض وحاول ذلك فلم يستطع . تظاهر بالنوم إلى أن وقف جيم جواره وقال له :

« حان الوقت .. »

نهض تام ايتام على الفور .

كانت مهمة (تام) هى أن يسبق قارب براون بساعة . كى يبلغ (دين واريش) بان يسمح للرجال بالمرور . لم يكن جيم يثق بشخص اخر ليقوم بهذه المهمة . طلب منه (ايتام) علامة تؤكد الكلام لأهميته ..

ناولوه جيم الخاتم الذى أخذه من شتاين قديما . وانطلق نام فى مهمته .

تلقى براون ورقة من جيم تقول :

« يمكنك الرحيل ... تحرك ما إن يظفوا قاربك مع مد الصباح . فليأخذ رجالك حذرهم لأن الأشجار على جاتى النهر مليئة برجال مسلحين . لا فرصة أمامكم .. »

مزق براون الورقة ثم استدار لكورنيليوس الذى جلبها وقال :

« وداعا يا صديقى الرائع .. »

جلس كورنيليوس جواره وقال محتجا :

« لماذا لم تقتلوه ؟ . كان بوسعكم أن تتلوا مالا من الرجا وتسولوا على البلدة . بالمقابل أنتم لم تظفروا بأى شيء . »

قال براون فى حزم :

« التصرف .. »

لكن كورنيليوس ركع عند قدمى براون وراح بهمس له . حكى له عن (دين واريش) ورجاله الذين ينتظرون عند أسفل النهر . شعر براون بأنه قد خدع .. هنا قال كورنيليوس إنه يعرف مخرجا اخر للنهر .. وراح يحكى لبراون كل ما قيل فى مجلس البلدة .. يحكىهم همسا كأنه يخشى أن يوقف الرجال النائمين .

قبل الفجر بساعتين عرف أهالى البلدة أن القراصنة قد بدءوا التحرك نحو قاربهم . تأهب الرجال المسلحون فى كل أرجاء يقوسن . برغم هذا ظل السكون سائدا كأن البلدة نائمة فى سلام .

ضباب ينتشر فوق سطح الماء فيجعل الرؤية عسيرة . وجيم يقف بالضبط عند البقعة التي هبط فيها على باتومسان أول مرة ومن مكان ما جاء صوته :

- « المجرى نظيف .. بما أن الضباب يحجب الرؤية فلتضع ثقتك بالتيار سوف يزول الضباب سريعاً .. »

فقال براون من القارب :

- « نعم .. سيؤول الضباب .. »

عاد صوت جيم بنوى عبر الضباب :

- « سوف ترسل لكم خنزيراً برياً وبعض ثمار اليام .. »

- « افعل ذلك .. »

وسرعان ما غاب القارب في صمت ..

على القارب كان كورنيليوس مع الرجال يقول :

- « سوف يأتيكم خنزير برى وبعض اليام . سيفعل ذلك .. »

هو لا يقول إلا الصدق . لكنه سرق كل ما أملكه .. »

قال براون :

- « أتصحك بقلق فمك وإلا ألقاك أحدهم هنا في هذا للضباب .. »

كان من الصعب أن ترى شيئاً .. حتى الماء خارج القارب ..

- « تلقوننى من هنا ؟ .. لكن سأعرف طريقى .. لقد عشت أعواماً كثيرة هنا .. »

- « ليس بما يكفى كي ترى فى ضباب كهذا . »

بدأ الضباب ينقشع .. ورأى براون ظلمة دامسة كأنه يحرق فى قلب الليل نفسه . ثم ظهر غصن كبير مثقل بالأوراق فوق رأسه .

الفصل التاسع عشر

فى الوقت نفسه بلغ (تام إيتام) نهاية رحلته . أخره الضباب لكنه جدد بلا توقف ملتصقا بالصفة الجنوبية للنهر .

من وقت لآخر يبدو ضوء النهار كبريق عبر كاس زجاجية كان الضباب ثقيلًا فوق الماء لكن كان هناك من يراقب . وسرعان ما برز لتام إيتام رجلان وظهر قارب تبادل الأخبار مع راكبيه .

كل شيء على ما يرام . المشكلة قاربت الحل .

واصل رحلته حتى سمع وراى الكثير من النيران مشتعلة على الرمال . من جديد سألوه من هو فقال اسمه

كان مصعكراً كبيراً والرجال يجلسون يثرثرون مع وجبة الصباح . وكانت البنادق مصفوفة فى أهرام صغيرة والرماح مفروسة فى الرمال .

طلب (تام إيتام) أن يقابل (دين وارينس) . وجد صديق سيده يرفد على أريكة من النيامبو . وكان متيقظاً . ناوله تام الخاتم الخاص بلورد جيم فأخذه ودس اصبعه فيه . ثم طلب منه أن يحكى له الأخبار .

قال له تام إن كل الزعماء وافقوا على أن يعبر الرجال البيض النهر بلا مضايقة . فكر وارينس ثم صرف (تام) كى يظفر ببعض الطعام والراحة وأمره بأن يعود عند الظهيرة .

كانت الشمس تلتهم الضباب الآن .. وكان هناك من يراقب النهر منتظراً وصول قارب الرجال البيض .

هذه هى اللحظة التى قرر فيها براون أن ينتقم من العالم الذى بعد عشرين سنة من المعاناة لم يمنحه نجاح اللص العادى . كانت شراسة عن سبق إصرار . وقد ظل يذكرها كذكرى عزيزة وهو على فراش الموت .

لقد أنزل رجاله فى خفة على جانب الجزيرة حيث مصعكر الأهالى . كان براون يقتاد كورنيليوس أمامه وقد قيد يديه خلف ظهره ليريحهم الطريق ، ومن حين لآخر يركله ليدفعه للأمام .

انتشر رجال براون حول المصعكر فى صمت .. لم يرههم أحد . لم يتوقع أحد أن الرجال البيض يعرفون أى شيء عن القنائة الضيقة فى خلفية المصعكر . عندما أدرك براون أن الوقت حان صاح فى رجائه :

« دعوهم ينوقوه !! »

فانطلقت 14 بندقية في وقت واحد ..

كانت الدهشة عارمة حتى إن من لم يقتلوا أو يجرحوا ظلوا متصلبين وقتاً طويلاً ثم دوت صرخة عنيفة وراح الرجال يجرّون في كل اتجاه كأنهم قطع ماشية مذعور . بعضهم وثب في الماء لكن بعد الطلقة الأخيرة .. وراح براون يسحب رجاله ويأمرهم :

« صوبوا لأسفل قليلاً »

(تام إيتام) فهم بسرعة وارتسم على الأرض كأنه ميت سمع وارتس الطلقات فخرج راكض فقط ليتلقى طلقة في جبهته .

وتراجع الرجال البيض كما جاءوا لم يره أحد .

لقد سوى براون حسابه مع الأقدار . لم تكن مجرد مذبح غيبية بل كانت تصفية حساب كانت درماً كانت عرضاً لطبيعتنا الأصلية التي أخشى أنها ليست بعيدة تحت السطح كما نحب أن نعتقد .

تلاشى الرجال البيض ، لكن هناك قصة عن قارب تم إنقاذه في المحيط الهندي بعد شهر .. ثلاثة هياكل عظمية ذات عيون زجاجية ، وبينها من قال إن اسمه (براون) . مات رجلان على

ظهر السفينة البحرية التي أنقذتهم وعاش براون ليرأى ويحكي لى قصته ..

أما عن كوريلبيوس فقد راه (إيتام) يركض وسط طلقات الرصاص ويصرخ حاور أن ينزل قريباً إلى الماء هنا رأى إيتام أمامه فرتمى على لارض وراح يركل ويصرخ كأنه دجاجة ختلفة . ثم عرف أن إيتام طعنه مرتين ، فهدمت حركته حتى مات تماماً ..

عرف تام إيتام أنه أول من سينقل هذه الأخبار للخصم . لقد سج كثير من عارة البيض ، لكن معظمهم وثب للماء . كانت الحقيقة المفرعة هي أنهم لا يعرفون من هاجمهم اعتقدوا أن هذا هجوم من رجال بيض آخرين ، وربما هي خيانة ...

الفصل العشرون

عندما بلغ تام القرية كانت النسوة أمام البيوت ينتظرن عودة قوارب (دين وارينس) . وكان هناك جو من البهجة والسرور بانتهاء هذه المشكلة . كانت المتاجر مفتوحة وكذلك البوابة لكن السوق لم يبدأ بعد .

جرى تام إيتام مسرعاً . كان أول من قابله هو الفتاة بعينه المتوحشتين ولهاثة وقف أمامها ثم انفجر وشفتاه ترتجفان

- « لقد قتلوا دين وارينس ! .. ومعه كثيرون »

كانت أول عبارة قلتها هي :

- « أغلقوا البوابات ! »

كان معظم الحراس قد رحلوا لكن إيتام ركض ليأمر الباقين بالانتظار .. استوقفته وأشارت إلى البيت وهتفت وهي ترتجف :

- « دعه يخرج ! »

جرى تام إيتام إلى البيت حيث كان سيده ناتماً يتقلب على الوصادة فأيقظه .. انفجر فيه :

- « اليوم يوم شر يا توان . يوم ملعون .. »

فتح جيم عينيه فراح الفتى يحكى له ما حدث ..

- « هل مات (وارينس) ؟ »

- « أظال الله عمرك .. كانت خاتنة شنيعة .. لقد خرج على صوت الطلقات وسقط أرضاً .. »

ركض جيم إلى النافذة وضربها بقبضته ، ثم بصوت هادئ أمره بأن يعد مجموعة قوارب لمطاردة الرجال . وراح يلبس ثيابه ثم تساعل :

- « لماذا تقف هنا ؟ »

ولحمر وجهه غضباً .. فلم يتحرك (تام إيتام) .. بعد قليل قال لصيده :

- « سامحني يا توان . لكن .. لكن .. لن يكون أى واحد من

خدمك أمنا لو خرج ومشى بين الناس ! »

فهم جيم .. لقد ترك العالم من أجل مشكلة . والآن ها هو ذا العالم الجديد الذى صنعه لنفسه يتهاوى من فوقه . القوى السوداء تسلبه السلام مرتين . قرر أن يتحدى الكارثة بالطريقة الوحيدة التى يمكن بها تحدى كارثة

جلس على المنضدة مفكراً . جاءت الفتاة لتكلمه واستوقفها بإشارة من يد تأمر بالصمت . هكذا خرجت إلى الشرفة وحدها ..

لقد خسر من جديد ثقة الرجال به ... الوحدة تحيط به من جديد ..

ظل جالماً حيث هو حتى المساء . ثم خرج إلى الشرفة وسأل تام إيتام :

- « حسن ؟ »

قال للخادم :

- « هناك الكثير من البكاء والتعيب . والغضب . »

ثم اضاف :

- « من يندى يا توان ربما بالحيلة قد نقدر على الفرار . الرجال خائفون .. »

ثم غادر الغرفة .. ظلت الفتاة معه ساعة .. كان الحزن يرفع روحه فوق أسوار وجوده ذاتها .. قالت له باكية :

- « قاوم ! »

كانت الشمس تغرب عندما عاد الرجال بجسد (دارين واريس) نبيت (دورامين) . ووقفت الأم حاملة ملاء بيضاء لتلقى بها جسد ابنها الوحيد .

وقف دورامين أمام جثة ابنه بينما أغصان أشجار الفاكهة تحثك فوق رأسه . وسقط فكه على صدره . كشفوا الملاءة عن جسد الفتى فراح الأب يتفحصه بعناية كأنه يفتش عن شيء سقط منه على الأرض . ربما يبحث عن الجرح .

كان الجرح فى الجبين . صغيراً جداً ..

مد أحدهم ينزع الخاتم من اصبع (واريمس) فتعالت
الشهقات عندما عرف الناس هذا الشيء . شهق دورامين
وأطلق صرخة ألم عذبة كأنه ثور جريح أثارت الرعب فى قلوب
الواقفين .

على الفور بدأت النسوة يصرخن ويولولن بينما وقف عجوزان
يتلوان القرآن بصوت عالٍ رخيماً .

فى الوقت ذاته جلس جيم جوار النهر يرمى الماء ، ثم التفت
لتام إيتام وقال :

- « حان وقت انتهاء هذا .. »

سأله الخادم فى دهشة :

- « توفان ؟ »

لم يرد جيم فسلته الفتاة :

- « هل ستقتل ؟ »

- « لا يوجد شيء أقاتل من أجله .. »

- « هل ستهرب ؟ »

- « لا مهرب .. »

- « هل سترحل ؟ »

هز رأسه أن نعم فصرخت :

- « أنت وعدتني ألا تفعل .. أنت كذوب أو مجنون .. قلت
إنك لن ترحل أبداً .. هل تنكر ؟ »

وبكت على كتفه .. والسماة فوق باتوسان كانت حمراء بلون
الدم . والشمس تشتعل فوق قمم الأتجار .. تعلقت به بقوة فأمر
تام إيتام بأن ينتزعها منه ، وبسرعة هرع إلى قارب فى الماء
ووثب فيه بينما هرعت الفتاة تحاول اللحاق به باكية ، وسقطت
على ركبتيها ..

لكنه كان يبتعد واقفاً فى القارب والمجداف فى يده ..

صرخت :

- « أنت كذاب ! »

- « سامحيني .. »

- « لن أفعل !.. أبدا ! »

وثب تام ايتام في القارب فلم يرق له أن يجذف سيده وهو موجود ، لكن لما اقترب القارب من بيت دورامين أصر جيم أن يعود خالده ويتركه وحده .

كان الظلام قد هبط والمشاعل هنا وهناك .. كل من رأى جيم تنحى جانباً وسمح له بالمرور . لا أعرف سبب الزحام وقتها .. هل كان تحسباً لهجوم آخر أم للانتقام أم ماذا ؟.. فقط كانوا يخشون هؤلاء البيض الملتحين القلّة ، ولم يفهموا قط علاقة جيم بهم .

كان دورامين جالساً وعلى ركبتيه غدارتان . عندما رأوا جيم تعالت الهمسات وانتحوا يميناً ويساراً ليسمحوا له بالمرور ..

توقف صراخ النساء فجأة .. ولم يرفع دورامين رأسه بينما جيم يقف أمامه .. ثم مشى نحو اليسار حيث كانت الأم تجلس جوار جثة ابنها وشعرها يغطي وجهها .. رفع الملاء ليلقى نظرة أخيرة على وجه صديقه ثم أسدلها ونهض ..

- « لقد جاء .. لقد جاء ! »

- « لقد تحمل المسؤولية على رأسه .. »

استدار جيم نحوهم وقال :

- « نعم .. على رأسى .. »

ثم قال لدورامين :

- « لنا جنت متاهة وغير مصلح .. »

تدحرج الخاتم من أنامل دورامين إلى الأرض ليسقط عند قدمي جيم ، وحاول العجوز أن يتكلم فلم تخرج إلا اصوات مختلطة مبهمّة من حلقه .

نظر دورامين لجيم بمزيج من الحزن والغضب والجنون .. ثم رفع الغدارة وأفرغ رصاصه في صدر صديق ابنه .

نظر الرجل الأبيض لليمين واليسار بلا أى تعبير على وجهه ثم سقط ميتاً ..

تلك هي النهاية .. غاب تحت سحابة .. غامضاً قلبه .. منسياً .. روماتسياً ..

ما كان ليحلم بنهاية كهذه فى طفولته .. لقد رأى فى تلك اللحظة الفرصة التى جاءته كعروس شرقية تتوارى خلف النقاب ..

لقد انتزع نفسه من امرأة حية حقيقية كى يزف نفسه إلى مثله الأعلى . فهل هو راض الآن ؟ .. من المفترض أن نعرف فقد كان دوماً واحداً منا ..

أحياناً أتذكره بقوة جامحة برغم أنه لم يعد موجوداً .. و هناك لحظات يمر فيها أمام عيني كروح تحررت من جسدها .. متأهبا ليسلم نفسه لعالم الظلال ..

من يعرف ؟ ..

الفتاة البالسة تعيش حياة الصمت فى دار (شتاين) .. لقد شاخ شتاين كثيراً وهو يدرك هذا .. ويقول كثيراً إنه متأهب لترك هذا كله .. متأهب للرحيل ..

يقولها وهو يلوح محزوناً لمجموعات الفراش التى جمعها .

جوزيف كونراد يونيو 1900



نورد جيم

عندما نخطئ يكون علينا أن ندفع الثمن . وقد ارتكب
نورد جيم في شبابه خطأ مروعا وسمه بالعار طيلة
حياته ، وكان عليه أن يمضى بقية أيامه محاولاً أن يفر
إلى أصقاع لا تذكر شيئاً عنه ، وأن يغسل هذا العار عنه ..
إلا أن ثمن الغسيل كان قادحاً وقاسياً ..
ماذا فعله اللورد (جيم) ؟ .. إن (جوزيف كونراد)
الأديب البولندي الكبير يعرف الإجابة ، وسوف نسمعها
منه في هذه الرواية الممتعة المهمة ...

العدد القادم

ماتيلدا



المؤسسة
العربية
للطباعة والنشر والتوزيع
بمصر والقاهرة والإسكندرية

الثمن في مصر 400
وما يعادله بالدولار الأمريكي
في سائر الدول العربية والعالم